تفسير سورة الذاريات

(دراسة تحليلية)

إعداد:

د / شعبان محمد عطية

أستاذ التفسير وعلوم القرآن المساعد

كلية أصول الدين بالقاهرة - جامعة الأزهر

تفسير سورة الذاريات دراسة تحليلية

شعبان محمد عطية علي

قسم التفسير وعلوم القرآن – كلية أصول الدين بالقاهرة – جامعة الأزهر

البريد الإليكتروني :

shabanmhammed32@ azhar.edu.eg

الملخص

لقد حرص المسلمون في كل عصر ومصر على حفظ القرآن وتفهم معانيه، كما حرصوا على العمل به ، والوقوف عند أحكامه ، وقد دفعهم إلى ذلك ما هو معلوم من أن القرآن العظيم هو كلام الله الملك الحق ، وأن تفسيره من أشرف العلوم وأفضلها، وأكثرها بركة، وأجلها معرفة، ومن الثابت أن الأمة في حاجة ماسة إلى هذا الكتاب المجيد ، ذلك أننا مطالبون بالعمل به ، ولا سبيل إلى ذلك إلا بمعرفة معانيه ، والوقوف على أسراره ، ومن أجل هذا وغيره ،جاءت هذه الدراسة حول تفسير سورة الذاريات رغبة مني في المساهمة ولو بشيء يسير فيما يتعلق بعلم التفسير العظيم ، وقد حاولت في هذا المبحث انتقاء الأقوال في بيان المعنى المراد مع عزو الأقوال من مظانها إلى أصحابها مع تخريج الأحاديث النبوية ، والآيات القرآنية ، والشواهد النحوية . والله الموفق.

النتائج

١- أن سورة الذاريات سورة مكية بالإجماع، وعدد آياتها ستون آية .

٢- أن الموضوع الأبرز لسورتنا هو قضية البعث ، وما يتعلق به.

٣ – أن الإنسانية منقسمة على نفسها في شأن ما جاء به أنبياء الله ورسله صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

٤– أنه لا حق للمكذبين بالبعث بعد وضوح الأدلة وظهور البراهين.

٥ – أن القرآن قد سلك مع المخالفين مسلك الحجة والبرهان توصلا لإقناع المنصفين .

٦– تعتبر الأدلة الحسية أحدى الأساليب القرآنية في عرض موضوعاته.

التوصيات

١– ضرورة العناية بالدراسات القرآنية المواكبة لظروف العصر الحديث.

٢ – العمل على الاستغلال الأمثل لما توصلت إليه الإنسانية من وسائل الاتصال الحديثة لتوضيح صورة الإسلام الرائعة التي يحاول المجرمون طمسها.

٣– ضرورة الوصول إلى الأقليات المسلمة في شتى أنحاء العالم وكذلك المنصفين من غير المسلمين وذلك لإظهار حقيقة الإسلام الرائعة التي أخفتها وتخفيها خفافيش الظلام.

٤– ضرورة الحرص على استغلال الطاقات التي وهبها الله لهذه الأمة من البترول وخلافه في ضرورة أن يسمع الآخر عن الإسلام الحق ، وألا يضيقوا عليه الخناق هنا وهناك.

الكلمات المفتاحية : سورة – الذاريات – الحبك – مسومين–مكية.

Interpretation of Surat Al-Dhariyat - an analytical study

Shaaban Muhammad Attia Ali

Department of Interpretation and Quranic Sciences: Faculty of Fundamentals of Religion in Cairo – Al-Azhar University

E.**Mail** shabanmhammed32@ azhar.edu.eg

Abstract:

Muslims in every era and Egypt have been keen to memorize the Qur'an and understand its meanings, as they were keen to work with it, and stand at its provisions, and they were prompted to do so by what is known that the great Qur'an is the word of God the true king, and that its interpretation is one of the most honorable and best sciences, and the most blessed, and for knowledge, and it is established that the nation is in dire need of this glorious book, because we are required to work with it, and there is no way to do so except by knowing its meanings, And stand on his secrets For this and others, this study came on the interpretation of Surat Al-Dhariyat desire me to contribute even something easy with regard to the science of interpretation of the great, has tried in this section to select the sayings in the statement of the intended meaning with the attribution of sayings from their contents to their owners with the graduation of the hadiths of the Prophet, and Quranic verses, and grammatical evidence. God bless.

Results

1 – Surat Al-Dhariyat is a Meccan surah unanimously, and the number of its verses is sixty verses.

2- The most prominent topic of our surah is the issue of the Baath, and what is related to it.

3 - Humanity is divided against itself regarding what the prophets and messengers of God have brought, may God's prayers and peace be upon them all.

4- That the liars have no right to resurrection after the evidence is clear and the proofs appear.

5 – The Qur'aan has followed with the violators the path of argument and proof in order to convince the fair-minded.

6- Sensory evidence is one of the Qur'anic methods in presenting its topics.

Recommendations

1- The need to take care of Quranic studies that keep pace with the conditions of the modern era.

2 – Work to make the best use of the modern means of communication reached by humanity to clarify the wonderful image of Islam that criminals are trying to obliterate.

3- The need to reach Muslim minorities around the world as well as non-Muslim fair-minded people in order to show the wonderful truth of Islam that has been hidden and hidden by the bats of darkness.

4- The need to be careful to exploit the energies that God has given to this nation of oil and so on in the need for the other to hear about true Islam, and not to tighten the noose on him here and there.

Keywords :

Sura – Dhariyat – Al-Habbak – Massumin -Meccan..

مقدمة

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على خير الخلق أجمعين ، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

وبعد

فقد أنزل ربنا سبحانه القرآن العظيم هدى وشفاء ورحمة وبشرى، ليخرج به الناس من الظلمات إلى النور ، ويهديهم به إلى صراط مستقيم، وقد تكفل الله تعالى بحفظ كتابه ، فقال تعالى: (إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ) [١] ، وكما تعهد سبحانه بحفظه فإنه أيضا قد تكفل ببيانه، قال تعالى : (ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ)[٢]

ومن تمام حفظ الله سبحانه لكتابه وبيانه له ، أن هيأ أمة رسول الله صلى الله عليه وسلم للقيام بدور عظيم نحو هذا الكتاب المجيد ، ومن هنا فقد حرص المسلمون في كل عصر ومصر على حفظ القرآن وتفهم معانيه، كما حرصوا على العمل به ، والوقوف عند أحكامه ، كذلك بذل العلماء قديما وحديثا جهودا عظيمة في خدمة كتاب الله – عز وجل – تعلما وتعليما ، تصنيفا وتأليفا، في نواحي مختلفة ، ومشارب متنوعة ، وقد دفعهم إلى ذلك ما هو معلوم من أن القرآن العظيم هو كلام الله الملك الحق ، وأن تفسيره من أشرف العلوم وأفضلها، وأكثرها بركة، وأجلها معرفة، ومن الثابت أن الأمة في حاجة ماسة إلى هذا الكتاب المجيد ، ذلك أننا مطالبون بالعمل به ، ولا سبيل إلى ذلك إلا بمعرفة معانيه ،

---

[١] – سورة الحجر الآية:٩

[٢] – سورة القيامة الآية:١٩

والوقوف على أسراره ، وقد أثنى الله سبحانه على أهل العلم بكتابه ، ورفع مكانتهم ، وجعلهم مرجعا للناس في فهم كلامه ، ومعرفة مراده ، وكفى بذلك نبلا ، وفضلا ، وعزا ، وتكريما ، وشرفا. قال تعالى : (قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ)[1] هذا ، وفضائل علم التفسير عديدة، وفوائده جمة ، ومن هذه الفوائد أنه يعين على فهم مراد الله عز وجل من كلامه ؛ وعليه فمن أوتي فهم القرآن فقد أوتي خيراً كثيراً. فعن أبي جحيفة رضي الله عنه قال: قلت لعلي رضي الله عنه: هل عندكم شيء من الوحي إلا ما في كتاب الله؟ قال: لا والذي فلق الحبة وبرأ النسمة ما أعلمه إلا فهما يعطيه الله رجلا في القرآن وما في هذه الصحيفة. قلت: وما في الصحيفة.قال: العقل وفكاك الأسير وأن لا يقتل مسلم بكافر[2].

ففهم القرآن معين لا ينضب، إذ يستخرج به من العلم شيء كثير مبارك ، ومن أجل هذا وغيره ،جاءت هذه الدراسة حول تفسير سورة الذاريات رغبة مني في المساهمة ولو بشيء يسير فيما يتعلق بعلم التفسير العظيم ، وقد اشتملت هذه الدراسة على مقدمة ، ومطلبين ، وخاتمة.

أما المقدمة فقد اشتملت على أهمية الموضوع ، وخطة البحث ، وأما المطلب الأول فقد اشتمل على التعريف بالسورة الكريمة ، وأما المطلب

---

[1] – سورة الزمر آية : ٩

[2] – أخرجه البخاري في صحيحه في كتاب الجهاد والسير – باب فكاك الأسير برقم ٣٠٤٧ (العقل) الدية. (فكاك الأسير) ما يخلص به من الأسر]

الثاني فقد اشتمل على تفسير السورة الكريمة ، وأما الخاتمة فقد اشتملت على أهم النتائج والمقترحات .

هذا ، وقد حاولت في هذا المبحث انتقاء الأقوال في بيان المعنى المراد مع عزو الأقوال من مظانها إلى أصحابها مع تخريج الأحاديث النبوية ، والآيات القرآنية ، والشواهد النحوية .

والله الموفق.

أولا : المطلب الأول : التعريف بالسورة الكريمة ، ويشمل

- اسم السورة الكريمة.

- زمن نزولها.

- سورة الذاريات

- عدد آياتها

- مناسبتها لما قبلها

- أهم موضوعات السورة الكريمة

أولا : اسم السورة الكريمة

تسمى هذه السورة بسورة «والذاريات» بإثبات الواو تسمية لها بحكاية الكلمة الواقعة في أولها ، وهذا التسمية هي التي ذكرها البخاري في كتاب التفسير من صحيحه[١]، وابن الجوزي[٢] ، وابن عطية[٣] ، والبغوي[٤] ، والقرطبي[٥] ، والزمخشري[٦] في تفاسيرهم ، وجمهور المفسرين على أنها تسمى «سورة الذاريات» بدون الواو اقتصارا على الكلمة التي لم تقع في غيرها من سور القرآن ، وهو الذي عليه العمل في المصاحف، وبه تعرف في مكاتب التحفيظ.

---

[١] – الجامع الصحيح المختصر للبخاري ٦/ ١٧٤، دار الشعب – القاهرة الطبعة الأولى ١٩٨٧ م

[٢] – زاد المسير في علم التفسير لابن الجوزي ١٦٧/٤ دار الكتاب العربي – بيروت الطبعة الأولى ١٤٢٢ هـ

[٣] – المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز لابن عطية ١٧١/٥، دار الكتب العلمية بيروت الطبعة الأولى ١٤٢٢ هـ

[٤] – معالم التنزيل في تفسير القرآن للبغوي ٣٦٨/٧ دار طيبة للنشر والتوزيع الطبعة الرابعة ١٤١٧ هـ – ١٩٩٧ م

[٥] – الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١٧/ ٢٩ دار الكتب المصرية القاهرة الطبعة الثانية ١٣٨٤هـ – ١٩٦٤ م

[٦] – الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل للزمخشري ٣٩٤/٤، دار الكتاب العربي – بيروت الطبعة الثالثة ١٤٠٧ هـ

ووجه تسميتها بهذا الاسم أن هذه الكلمة التي سميت بها السورة لم ترد في غيرها من سور القرآن. قال المهايمي : سميت بها لأنها مبدأ الخيرات فأشبهت العناية الإلهية[1]

٢ – زمن نزولها

هذه السورة مكية باتفاق. قال العلامة القرطبي : سورة والذاريات مكية في قول الجميع[2]. وبه قال ابن كثير[3] وآخرون[4]

٣ – عدد آياتها

عدد آيات السورة الكريمة كما في مصاحفنا :ستون آية. قال العلامة القرطبي رحمه الله : وهي ستون آية[5]

٤ – مناسبتها لما قبلها

معلوم أن السورة التي تسبقها من حيث الترتيب المصحفي إنما هي سورة ق، وبالتأمل نلاحظ أن بين السورتين ارتباطا وثيقا على النحو التالي:

١ – السورتان مكيتان.

---

[1] – تبصير الرحمن وتيسير المنان ببعض ما يشير إلى إعجاز القرآن لعلي بن أحمد المهايمي ٢٩٥/٢ عالم الكتب بيروت الطبعة الثانية : ١٤٠٣ هـ

[2] – الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١٧/ ٢٩

[3] – تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٧/ ٣٨٦ . دار الكتب العلمية، منشورات محمد علي بيضون – بيروت الطبعة الأولى – ١٤١٩ هـ

[4] – البحر المديد لابن عجيبة ٤٦٣/٥ .دار الكتب العلمية ، الطبعة: ١٤١٩ هـ . ومفاتيح الغيب لفخر الدين الرازي ١٥٩/٢٨. دار إحياء التراث العربي – بيروت الطبعة الثالثة – ١٤٢٠ هـ

[5] – الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١٧/ ٢٩

٢ – السورتان اشتركتا في الافتتاح بالقسم.

٣ – ختمت سورة ق بالحديث عن يوم القيامة ، وأنه جد يسير ، وجاءت سورة الذاريات لتؤكد بالقسم على أنه واقع لا محالة. قال العلامة الآلوسي:

ومناسبتها لسورة «ق» أنه لما ختمت بذكر البعث واشتملت على ذكر الجزاء والجنة والنار وغير ذلك افتتحت هذه بالإقسام على أن ما وعدوا من ذلك لصادق، وأن الجزاء لواقع، وأنه قد ذكر هناك إهلاك كثير من القرون على وجه الإجمال، وذكر هنا إهلاك بعضهم على سبيل التفصيل إلى غير ذلك مما يظهر للمتأمل[١].

٤ – تحدثت السورتان الكريمتان عن جملة من دلائل القدرة الإلهية.

٥ – اشتركت السورتان في الحديث عن بيان مصير المتقين والكفار.

٦ – ذكرت سورة ق قصص عدد من الأنبياء على سبيل الإجمال ، وجاء ذكر هؤلاء بشيء من التفصيل في الذاريات[٢].

٧ – ذكرت سورة «ق» موقف المشركين ومقولاتهم المتكررة للبعث، كما ذكرت مع هذه المقولات من آيات الله ، ومن دلائل قدرته، ما يكشف عن ضلال هذه المقولات، وانحراف هذا الموقف. قال الأستاذ عبدالكريم الخطيب رحمه الله تعالى : ومناسبتها لآخر ما قبلها أنه قال :(فَذَكِّرْ

---

[١] – روح المعاني للآلوسي ٣/١٤ ، دار الكتب العلمية – بيروت – الطبعة الأولى، ١٤١٥ هـ

[٢] – تفسير المراغي ١٧٣/٢٦ ، بتصرف.

بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخافُ وَعِيدِ. وقال أول هذه بعد القسم : (إِنَّما تُوعَدُونَ لَصادِقٌ، وَإِنَّ الدِّينَ لَواقِعٌ)[1].. ثم ختمت السورة بتخلية النبي – صلى الله عليه وسلم – بين المشركين المعاندين، وبين ما ركبوا من ضلال.. ثم تجيء سورة «الذاريات» ، لتلقى هؤلاء المشركين المعاندين، بحديث مجدد عن البعث، والحساب والجزاء، ولكن لا تلقاهم لقاء مواجها لهم وحدهم، بل ضمن حديث عام مطلق، موجه إلى الناس جميعا.. فإن شاءوا استمعوا إليه، وكان لهم أن ينتفعوا به، وإن شاءوا مضوا على ما هم عليه من إعراض ونفور! وذلك ما سنراه في مطلع هذه السورة الكريمة[2].

وقال العلامة الآلوسي : ومناسبتها لسورة «ق» أنه لما ختمت بذكر البعث واشتملت على ذكر الجزاء والجنة والنار وغير ذلك افتتحت هذه بالإقسام على أن ما وعدوا من ذلك لصادق، وأن الجزاء لواقع، وأنه قد ذكر هناك إهلاك كثير من القرون على وجه الإجمال، وذكر هنا إهلاك بعضهم على سبيل التفصيل إلى غير ذلك مما يظهر للمتأمل[3].

---

[1] – البحر المحيط لأبي حيان ٥٤٨/٩، دار الفكر – بيروت – طبعة ١٤٢٠ هـ

[2] – التفسير القرآني للقرآن لفضيلة الشيخ عبد الكريم الخطيب ١٣/ ٥٠٠ ، دار الفكر العربي – القاهرة

[3] – روح المعاني للآلوسي ٣/١٤.

٥ – أهم موضوعات السورة الكريمة

المتأمل في هذه السورة الكريمة، يراها– كغيرها من السور المكية– قد ركزت حديثها على إقامة الأدلة على أن البعث حق، والجزاء حق، وعلى أن سنة الله– تعالى– قد اقتضت أن يجعل العاقبة الطيبة لأنبيائه وأتباعهم، والعاقبة السيئة للمكذبين لرسلهم، وعلى أن الوظيفة التي من أجلها خلق الله تعالى الجن والإنس، إنما هي عبادته وطاعته. وعلى أن العبادة لا تكون إلا لله الواحد القهار. هذا على سبيل الإجمال ، وأما تفصيلا ، فقد تناولت السورة ما يأتي :

١– افتتحت السورة بالقسم من الله تعالى، ببعض مخلوقاته، على أن البعث حق، وعلى أن الجزاء حق. قال تعالى : (وَالذَّارِياتِ ذَرْواً. فَالْحامِلاتِ وِقْراً. فَالْجارِياتِ يُسْراً. فَالْمُقَسِّماتِ أَمْراً. إِنَّما تُوعَدُونَ لَصادِقٌ. وَإِنَّ الدِّينَ لَواقِعٌ).

٢– ثم بينت السورة الكريمة بعد ذلك، ما أعده– سبحانه– لعباده المتقين، فقال تعالى : (إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ. آخِذِينَ ما آتاهُمْ رَبُّهُمْ، إِنَّهُمْ كانُوا قَبْلَ ذلِكَ مُحْسِنِينَ. كانُوا قَلِيلًا مِنَ اللَّيْلِ ما يَهْجَعُونَ. وَبِالْأَسْحارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ. وَفِي أَمْوالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ)

٣– ثم تناولت السورة الكريمة بعد ذلك طرفا من قصة إبراهيم ، ولوط ، وموسى ، وهود ، وصالح ، ونوح– عليهم السلام– مع أقوامهم، ليكون في ذلك عظة وعبرة لأولي الألباب بحسن عاقبة الأخيار، وسوء عاقبة الأشرار.

قال الشيخ الطاهر بن عاشور :ثم انتقلت السورة إلى التعريض بالإنذار بما حاق بالأمم التي كذبت رسل الله، وبيان الشبه التام بينهم وبين أولئك. وتلقين هؤلاء المكذبين الرجوع إلى الله وتصديق النبي صلى الله عليه وسلم ونبذ الشرك.[1]

٤ – ثم تختم السورة الكريمة ببيان ما يدل على كمال قدرته، وعلى سعة رحمته، ورفع الحرج واللوم عنه – صلى الله عليه وسلم – بعد إنذارهم ، دعيا الناس جميعا إلى إخلاص العبادة والطاعة له، لأنه– سبحانه– ما خلقهم إلا لعبادته.

قال– تعالى–: (وَما خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ. ما أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَما أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ. إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ. فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذَنُوباً مِثْلَ ذَنُوبِ أَصْحابِهِمْ فَلا يَسْتَعْجِلُونِ. فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَ).

قال الشيخ ابن عاشور :

بينت السورة معذرة الرسول صلى الله عليه وسلم من تبعة إعراضهم والتسجيل عليهم بكفران نعمة الخلق والرزق. ووعيدهم على ذلك بمثل ما حل بأمثالهم[2].

---

[1] تفسير التحرير والتنوير لابن عاشور ٣٣٦/٢٦، الدار التونسية للنشر – تونس ١٩٨٤ هـ

[2] – تفسير التحرير والتنوير لابن عاشور ٣٣٦/٢٦.

المطلب الثاني :

تفسير آيات السورة الكريمة

الموضوع الأول : البعث حق

قال تعالى : (وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا ، فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا ، فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا ، فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا ، إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ، وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ ، وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ ، إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ ، يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ ، قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ ، الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ ، يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ ، يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ ، ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ) الآيات من ١: ١٤

معاني المفردات

١ – (وَالذَّارِيَاتِ) ، الذاريات: الرياح تذرو التراب وغيره: أي : تسوقه وتحركه وتنقله من مكانه. قال ابن منظور : ذرت الريح التراب وغيره تذروه وتذريه ذروا: أطارته وسفته وأذهبته، وقيل: حملته فأثارته[١].وقوله: (ذَرْواً): منصوب على المصدر المؤكد، والعامل فيه فرعه ، وهو اسم الفاعل. والمفعول محذوف اقتصارا[٢]

٢ – (وِقْرًا) ، الحاملات هي الرياح الحاملات للسحاب المشبع ببخار الماء ، والوقر: حمل البعير وجمعه أوقار: أي أثقال ، أو المراد : السحاب الحاملة للأمطار. قال ابن سيده : الوقر: ثقل في الأذن. وقيل: هو أن

---

[١] – لسان العرب لابن منظور باب الواو – فصل الذال المعجمة ١٤/ ٢٨٢، دار صادر – بيروت الطبعة الثالثة – ١٤١٤ هـ. و تهذيب اللغة للأزهري في أبواب الثلاثي المعتل من حرف الذال .٥/١٥. دار إحياء التراث العربي – بيروت – الطبعة الأولى، ٢٠٠١م

[٢] – الدر المصون في علوم الكتاب المكنون للسمين الحلبي ٣٩/١٠. دار القلم، دمشق

يذهب السمع كله، والثقل أخف من ذلك. والوقر: الحمل الثقيل . وعم بعضهم به: الثقيل والخفيف وما بينهما، وجمعه : أوقار[١].ووقرا : مفعول به بالحاملات ، ويجوز أن يكون مصدرا على حاله، والعامل فيه معنى الفعل قبله[٢]

٣ – (فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا) الجاريات هي الرياح الجارية في مهابها بسهولة، واليسر: السهولة. وقيل : يعني السفن تجري ميسرة في الماء جريا سهلا[٣]. وقوله: (يسرا) : يجوز أن يكون مصدرا من معنى ما قبله أي: جريا يسرا، وأن تكون حالا أي: ذات يسر أو ميسرة أو جعلت نفس اليسر مبالغة.[٤]

٤ – (فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا) ، المقسمات هم الملائكة المنفذون لأوامر الله ، أو هي الرياح التي تقسم الأمطار بتصريف السحاب. قال صاحب التفسير الوسيط : والمراد بالمقسمات في قوله– سبحانه– (فَالْمُقَسِّماتِ أَمْراً) : الملائكة ، فإنهم يقسمون أرزاق العباد وأمورهم وشئونهم على حسب ما

---

[١] – المحكم والمحيط الأعظم لا بن سيده ٦/ ٥٤٩ . دار الكتب العلمية – بيروت – الطبعة الأولى ١٤٢١ هـ – ٢٠٠٠ م. ولسان العرب لابن منظور باب الراء – فصل الواو ٥/ ٢٨٩

[٢] – الدر المصون في علوم الكتاب المكنون للسمين الحلبي ٣٩/١٠.

[٣] – زاد المسير في علم التفسير لابن الجوزي ٤/ ١٦٧، دار الكتاب العربي – بيروت – الطبعة الأولى – ١٤٢٢ هـ

[٤] – الدر المصون في علوم الكتاب المكنون للسمين الحلبي ٣٩/١٠.

يكلفهم الله تعالى به من شئون مختلفة[1].وقوله: (أمرا) : يجوز أن يكون مفعولا به، وهو الظاهر، وأن يكون حالا أي: مأمورة، وعلى هذا فيحتاج إلى حذف مفعول «المقسمات»[2]

٥ – (إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ) ، ما توعدون: هو البعث، .والحشر للحساب، والجزاء. والمعنى : أي: وحق هذه الأشياء التي ذكرتها لكم إن ما توعدون من الجزاء والحساب والبعث.. لصدق لا يحوم حوله كذب أوشك. و «ما» يجوز أن تكون اسمية، وعائدها محذوف أي : توعدونه ، أو مصدرية فلا عائد على المشهور، وحينئذ يحتمل أن يكون «توعدون» مبنيا من الوعد، وأن يكون مبنيا من الوعيد لأنه صالح أن يقال: أوعدته فهو يوعد، ووعدته فهو يوعد لا يختلف ، فالتقدير: إن وعدكم ، أو إن وعيدكم. ولا حاجة إلى قول من قال: إن قوله: «لصادق» وقع فيه اسم الفاعل موقع المصدر أي : لصدق ؛ لأن لفظ اسم الفاعل أبلغ إذ جعل الوعد أو الوعيد صادقا مبالغة ، وإن كان الوصف إنما يقوم بمن يعد أو يوعد[3]

٦ – (وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ)،الدين: الجزاء، قال أبو عبيد: الدين – الجزاء وقد دنته وَيَوْم الدّين – يوم الجزاء[4]. والدين: الجزاء والمكافأة. يقال: دانه دينا،

---

[1] – التفسير الوسيط لفضيلة الأستاذ الدكتور محمد سيد طنطاوي ١٠/١٤، دار نهضة مصر بالقاهرة الطبعة الأولى : ١٩٩٧

[2] – – الدر المصون في علوم الكتاب المكنون للسمين الحلبي ٣٩/١٠.

[3] – المرجع السابق ٤١/١٠

[4] – المخصص لابن سيده ٤٢٥/٣، دار إحياء التراث العربي – بيروت الطبعة الأولى ١٤١٧هـ ١٩٩٦م

أي جازاه. يقال : كما تدين تدان[١] ، أي كما تُجازي تُجازى، أي تُجازى بفعلك وبحسب ما عملت. وقوله تعالى: (أَءِنَّا لَمَدينونَ)[٢] أي مجزيون محاسبون[٣]. وواقع: أي: حاصل . وهذه الكلمة : كناية عن البعث الذي يكون فيه جزاء كل نفس بما كسبت.

٧ – (وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ) ، الحبك: الطرق ، مفردها حبيكة. والحبك : الإتقان ، يقال : حبكت الشيء: أحكمته وأحسنت عمله. والمعنى : والسماء ذات الصنع الحسن المتقن ، أو ذات المسالك والطرائق ، أو ذات النجوم. قال ابن فارس : الحبك : وهو إحكام الشيء في امتداد واطراد. وحبك السماء في قوله تعالى: (وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ) ، فقال قوم: ذات الخلق الحسن المحكم. وقال آخرون: الحبك الطرائق، الواحدة حبيكة. ويراد بالطرائق طرائق النجوم[٤]..

٨– (إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ) ،قول مختلف: أي متناقض مضطرب في شأن الله، فمع أنكم تقولون إنه خالق السموات تقولون بصحة عبادة الأوثان معه، وفى شأن الرسول – صلى الله عليه وسلم – فتارة تقولون

---

[١] – أخرجه البيهقي جزءا من حديث في الأسماء والصفات باب جماع أبواب ذكر الأسماء التي تتبع إثبات التدبير له دون ما سواه حديث معمر بن راشد في رقم ١٣٢ .وقال البيهقي : مرسل . مكتبة السوادي، جدة – المملكة العربية السعودية الطبعة الأولى ١٤١٣ هـ – ١٩٩٣م

[٢] – سورة الصافات ، آية : ٥٣

[٣] – الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية للجوهري ٢١١٨/٥ دار العلم للملايين – بيروت الطبعة الرابعة ١٤٠٧ هـ ١٩٨٧ م

[٤] – مقاييس اللغة لابن فارس ٢/ ١٣٠

إنه مجنون ، وتارة تقولون إنه ساحر، وفى شأن الحشر : فتارة تقولون : لا حشر ، ولا بعث، وأخرى تقولون: الأصنام شفعاؤنا عند الله يوم القيامة[1]. وهذه الجملة جواب القسم.

٩ – (يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ) ، قال ابن منظور : الإفْك: الكذب. والأفيكة: كالإفك ، والأَفْكُ بالفتح: مصدر قولك أفكه عن الشيء يأْفِكُه أَفْكا صرفه عنه وقلبه ، وقيل: صرفه بالإفك[2] ،يقال : أَفَكْتُ الرجل عن رأيه إذا صرفته عنه. ومنه سمي الكذب إفكا لأنه قد قلب عن الحق إلى الباطل. وسميت مدائن قوم لوط المؤتفكات لانقلابها[3]. والمعنى : يصرف عن القول المختلف: أي بسببه من صرف عن الإيمان.

وقوله: (يُؤْفَكُ عَنْهُ) : صفة لقول. والضمير في (عَنْهُ) للقرآن، أو للرسول، أو للدين أو لما توعدون أي: يصرف عنه. وقيل: «عن» للسبب. والمأفوك عنه محذوف، والضمير في (عَنْهُ) على هذا ل (قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ) أي: يؤفك بسبب القول من أراد الإسلام بأن

يقول: هو سحر، هو كهانة.[4]

---

[1] – بتصرف من تفسير المحرر الوجيز لابن عطية ١٧٣/٥، دار الكتب العلمية – بيروت الطبعة الأولى – ١٤٢٢ هـ. وزاد المسير في علم التفسير لابن الجوزي ١٦٨/٤.

[2] – لسان العرب لابن منظور باب الكاف فصل الألف ١٠/ ٣٩١ . دار صادر – بيروت الطبعة الثالثة – ١٤١٤ هـ

[3] – غريب الحديث للخطابي ١/ ٦٨٠. دار الفكر – دمشق ١٤٠٢ هـ – ١٩٨٢ م

[4] – الدر المصون في علوم الكتاب المكنون للسمين الحلبي ٤٣/١٠

١٠ – (قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ)، قتل: دعاء عليهم كقولهم: قاتلك الله، وقيل: قتل بمعنى لعن ، يقال: قاتل الله فلانا ، معناه لعن الله فلانا. قال الله عز وجل : (قُتِلَ الإنسانُ ما أَكفَرَه)[١] ، قال الفراء: معناه: لُعِنَ الإنسان. ويقال: معنى قاتل الله فلانا: عاداه الله[٢]. والخرص: التخمين ، والقول بالظن من غير دليل، والخراصون: المتوهمون ، والظانون على غير أساس وعلم. والخَرْصُ: الكذب، والخراصون في قوله جل وعز: (قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ) : الكذابون، ويَخْرُصُون: يكذبون. والخَرْص: الحَزْرُ في العدد والكيل، والخارص: يَخرُص ما على النخلة، ثم يقسم الخراج على ذلك[٣]. وفي قوله: (قُتِلَ) : استعارة تبعية، حيث استعار القتل للدعاء عليهم باللعن، لأن الملعون يشبه المقتول في الهلاك.

١١ – (فِي غَمْرَةٍ) ، الغمرة : ما يغطي عقل الإنسان، وأصله من غمرة الماء، الغَمْر: الماء الكثير المغرق. والغِمارُ: جماعة الغَمْرِ، وهي مجتمع ماء البحر والنهر[٤]. والمراد به هنا العمى ، والجهالة ، والغفلة عن النظر.

١٢ – (سَاهُونَ): السهو : الغفلة عن الشيء ، وذهاب القلب عنه[٥] ، والمعنى : أنهم غافلون عما أمروا به.

---

[١] – سورة عبس ، آية : ١٧

[٢] – الزاهر في معاني كلمات الناس لأبي بكر الأنباري مؤسسة الرسالة – بيروت الطبعة الأولى ١٤١٢ هـ –١٩٩٢

[٣] – كتاب العين للخليل بن أحمد في أبواب الثلاثي الصحيح من الخاء – باب الخاء والصاد والراء ٤/ ١٨٣ ، دار ومكتبة الهلال

[٤] – كتاب العين للخليل بن أحمد ٤/ ٤١٦

[٥] – المرجع السابق ٤/ ٧١، ولسان العرب لابن منظور باب الواو – فصل السين ١٤/ ٤٠٦

١٣ – (يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ) ، أَيَّانَ: اسم استفهام بمعنى متى. أي: يسألون سؤال استهزاء واستخفاف فيقولون: متى يكون هذا البعث الذي تحدثنا عنه يا محمد، ومتى يوم الجزاء والحساب الذي تهددنا به؟ وقوله: (أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ) : مبتدأ وخبر. قيل: وهما ظرفان فكيف يقع أحد الظرفين في الآخر؟ وأجيب: بأنه على حذف حدث، أي: أيان وقوع يوم، فأيان ظرف للوقوع.[١]

١٤ – – قوله : (يَوْمَ هُمْ) : يجوز أن يكون منصوبا بمضمر أي: الجزاء كائن يوم هم. ويجوز أن يكون بدلا من (يَوْمُ الدِّينِ) ، والفتحة للبناء على رأي من يجيز بناء الظرف وإن أضيف إلى جملة اسمية، وعلى هذا فيكون حكاية لمعنى كلامهم قالوه على الاستهزاء، ولو جاء على حكاية لفظهم المتقدم لقيل: يوم نحن على النار نفتن. ويوم منصوب بالدين. وقيل: بمضمر أي: يحارون. وقيل: هو مفعول ب أعني مقدرا. وعدى (يُفْتَنُونَ) ب على لأنه بمعنى يختبرون. وقيل: على بمعنى في. وقيل : (يَوْمَ هُمْ) خبر مبتدأ مضمر أي: هو يوم هم. والفتح لما تقدم[٢]

١٥ – (يُفْتَنُونَ) أي : يحرقون ، والفتن: مأخوذ من الفتن بمعنى الاختبار والامتحان، يقال: فتنت الذهب بالنار، إذا أذبته لتظهر جودته من غيرها. (والفَتْنُ) : الإحراق ، وهو المراد به هنا[٣].

---

[١] – الدر المصون في علوم الكتاب المكنون للسمين الحلبي ٤٣/١٠

[٢] – الدر المصون في علوم الكتاب المكنون للسمين الحلبي ٤٣/١٠

[٣] – لسان العرب لابن منظور بتصرف ١٣/ ٣١٧

١٦ – (فِتْنَتَكُمْ) أي ذوقوا طعم حريق النار ، أو ذوقوا جزاء فتنتكم في الدنيا.

القراءات

١ – قوله :(وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا) ، قرأ أبو عمرو وحمزة: بإدغام تاء {الذاريات} في ذال {ذَرْوًا}، وقرأ الباقون: بدون إدغام[١]

٢ – قوله : (يُسْرًا) ،قرأ «أبو جعفر» «يسرا» بضم السين. وقرأ الباقون بإسكانها، وهما لغتان [٢]، .

٣ – قوله : (الْحُبُكِ) ، في هذه اللفظة قراءات كثيرة: فعن الحسن ست: الحبك بالضم كالعامة، الحبك بالضم والسكون، وتروى عن ابن عباس وأبي عمرو، الحبك بكسرهما، الحبك بالكسر والسكون، وهو تخفيف المكسور، الحبك بالكسر والفتح، الحبك بالكسر والضم[٣]. فهذه ست أقلها الأخيرة[١]

---

[١] – النشر في القراءات العشر لابن الجزري ٣٤٣/١، و ٢/٢ . راجعه :الشيخ/ علي محمد الضباع –شيخ عموم المقارئ: بالديار المصرية – المكتبة العصرية . صيدا . بيروت ، الطبعة الأولى ١٤٢٧هـ . ٢٠٠٦ م

[٢] – البدور الزاهرة في القراءات العشر المتواترة لعبد الفتاح القاضي ١/ ٣٠٣. دار الكتاب العربي، بيروت – لبنان

[٣] – المحتسب لابن جني ٢/ ٢٨٦ – ٢٨٧ . يقول ابن جني عن هذه القراءة: (أما الحبك بكسر الحاء وضم الباء فأحسبه سهوا. ولعل الذي قرأ به تداخلت عليه القراءتان بالكسر والضم فكأنه كسر الحاء يريد (الحبك) وأدركه ضم الباء على صورة =

المعنى العام

تبدأ السورة الكريمة بالقسم على أن البعث حق ، حيث أقسم الله في بداية هذه السورة بالذاريات التي هي الرياح وذروها للتراب وتلقيحها للنبات ، وحملها للبخار ،حيث تعلو به إلى طبقات الجو العليا ، وتدفعه أمامها ، حتى يتجمع ، ويصير سحابا ، ثم أقسم بما تحمله من السحاب الحاملات في طياتها ثقلا من الماء يسوقه الله تعالى حيث يشاء إلى من يشاء من خلقه وفق علمه وحكمته ، هذا السحاب الذي يجري في الهواء بيسر وسهولة ، يقسم الله به الأمطار على عباده ، وقد أقسم سبحانه بكل هذا على أن البعث حاصل ، وإن هذا الجزاء لا بد منه في ذلك اليوم ، يوم يقوم الناس لرب العالمين.

وقد أقسم ربنا سبحانه بالرياح وأفعالها ، لما كانت العرب يستبشرون بآثارها ومنافعها العظيمة ، فقد كانت الرياح بما تحمل من السحب من أهم مظاهر غبطتهم وسرورهم ، فهي التي تحمل إليهم الأمطار مبشرات بخير كثير ، من سقي الأنعام والزروع، ومنها تنبت البساتين والجنات ، وبالتالي تكثر الخيرات والبركات ، ويصبح الناس في رغد من العيش ، فها

=

الحبك) المحتسب ٢/ ٢٨٧. ويقول عنها ابن عطية: هي قراءة شاذة غير متوجهة). تفسير ابن عطية ٥/ ١٧٢

[١] – الكامل في القراءات والأربعين الزائدة عليها لأبي القاسم يوسف الهذلي المغربي – ص : ٦٤٠ تحقيق : جمال بن السيد بن رفاعي الشايب مؤسسة سما للتوزيع والنشر الطبعة الأولى : ١٤٢٨ هـ ٢٠٠٧ م . البدور الزاهرة في القراءات العشر لعبد الفتاح القاضي ص : ٥٦٧

هي الأرض الجرداء قد أصبحت جنة خضراء بما ينفع الناس والأنعام ، وبما أنهم كانوا يعتمدون على عظيم آثارها في معاشهم فقد أصبحت جديرة بأن يقسم لهم بها على هذا النحو الوارد في آيات السورة الكريمة .

ويضيف فضيلة الشيخ / مصطفى المراغي رحمه الله قائلا:

وأفعال الرياح تخالف ناموس الجاذبية ، فإن ما على الأرض منجذب إليها، واقع عليها ، ولكن هذه الرياح تتصرف تصرفا عجيبا تابعا لسير الكواكب ، فبجريها وجري الشمس تؤثر في أرضنا وهوائها بنظام محكم ، فما ذرت الرياح التراب ، ولا حملت السحاب ، ولا قسمت المطر على البلاد إلا بحركات فلكية منتظمة ، من أجل هذا جعل ذلك براهين على البعث والإعادة[١].

هذا على اعتبار أن المقسم به صفات لموصوف واحد هو الرياح فإنها توصف بجميع ذلك لأنها تذرو التراب، وتحمل السحاب، وتجري في الهواء، وتقسم الأمطار، ، وقيل : إن المقسم به أشياء متغايرة حيث أقسم لإثبات الحشر بالرياح التي تذرو التراب وغيره وتفرقه ، وبالسحب الحاملة الماء الثقيل ، وبالسفن الجارية بيسر وسهولة فوق الماء ، وبالملائكة التي تقسم الأرزاق والأمطار والآجال بين المخلوقات ، بأن الموعود به من الحشر إلى الله تعالى ، ووقوع المعاد ، صادق واقع ، وأن الجزاء بالثواب والعقاب قائم فعلا حتما. قال الإمام القرطبي رحمه الله:

---

[١] – تفسير المراغي لفضيلة الشيخ/أحمد بن مصطفى المراغي٢٦/١٧٦

عن عامر بن واثلة أن ابن الكواء[1] سأل عليا رضي الله عنه، فقال: يا أمير المؤمنين ما (وَالذَّارِياتِ ذَرْواً) قال: ويلك سل تفقها ولا تسأل تعنتا (وَالذَّارِياتِ ذَرْواً) : الرياح (فَالْحامِلاتِ وِقْراً) : السحاب (فَالْجارِياتِ يُسْراً) : السفن. (فَالْمُقَسِّماتِ أَمْراً) : الملائكة[2].

أخرج البزار عن سعيد بن المسيب ، قال : جاء صبيغ التميمي إلى عمر بن الخطاب ، فقال : يا أمير المؤمنين أخبرني عن : (وَالذَّارِياتِ ذَرْواً) ، قال : هي الرياح ، ولولا أني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقوله ما قلته . قال : فأخبرني عن (فَالْحامِلاتِ وِقْراً) ، قال : هي السحاب ، ولولا أني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقوله ما قلته . قال : فأخبرني عن (فَالْجارِياتِ يُسْراً) ، قال : هي السفن، ولولا أني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقوله ما قلته . قال : فأخبرني عن

---

[1] – هو عبد الله بن الكواء من بنى يشكر كان من أصحاب علي رضى الله عنه، وكان يلزمه ويعييه في الأسئلة، ثم خرج مع الخوارج على علي رضى الله عنه ، وكان من رؤسائهم ، ثم رجع عن مذهبهم وعاود صحبة على رضى الله عنه. قال البخاري: لم يصح حديثه. انظر ترجمته في الفرق بين الفرق (ص ٧٥)، اللسان (٣/ ٣٢٩)

[2] – أخرجه ابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله في : باب في ابتداء العالم جلساءه بالفائدة ١/ ٤٦٤ ، دار ابن الجوزي، المملكة العربية السعودية الطبعة الأولى، ١٤١٤ هـ – ١٩٩٤ م . والضياء المقدسي في الأحاديث المختارة ٢ / ١٢٤. وقال محققه : إسناده صحيح . دار خضر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت – لبنان وابن عساكر في تاريخ دمشق ٢٧/١٠٠. دار الفكر ١٤١٥ هـ – ١٩٩٥ م . والشاشي في المسند ٢/٩٦. مكتبة العلوم والحكم – المدينة المنورة الطبعة الأولى ١٤١٠

(فَالْمُقَسِّماتِ أَمْراً)، قال : هي الملائكة ، ولولا أني سمعت رسول الله – صلى الله عليه وسلم – يقوله ما قلته[١].

قال الإمام البيضاوي : فإن حملت على ذوات مختلفة فالفاء لترتيب الإقسام بها باعتبار ما بينها من التفاوت في الدلالة على كمال القدرة، وإلا فالفاء لترتيب الأفعال إذ الريح مثلا تذرو الأبخرة إلى الجو حتى تنعقد سحابا، فتحمله فتجري به باسطة له إلى حيث أمرت به فتقسم المطر[٢].

وقد أقسم الله بهذه الأشياء لشرف ذواتها، ولما فيها من الدلالة على عجيب صنعته وقدرته لكونها أمورا بديعة مخالفة لمقتضى العادة، فمن قدر عليها فهو قادر على البعث الموعود به.

وقد كثر القسم في القرآن على هذا النسق لأن العرب كانت تحترز عن الأيمان الكاذبة وتعتقد أنها تدع الديار خرابا ، وقد جرى النبي – صلى الله عليه وسلم – على سننهم، فحلف بكل شريف ولم يزده ذلك إلا رفعة وثباتا، وكانوا يعلمون أنه لا يحلف إلا صادقا، وإلا أصابه شؤم الأيمان، وناله المكروه في بعض الأيمان. والترتيب في هذه الأقسام ترتيب ذكري

---

[١] – أخرجه البزار في مسنده في كتاب التفسير– سورة الذاريات حديث رقم ٢٢٥٩ وقال البزار : لا نعلمه مرفوعا من وجه إلا من هذا، وإنما أتى من أبي بكر بن أبي سبرة فيما أحسب، لأنه لين الحديث، وسعيد بن سلام لم يكن من أصحاب الحديث مؤسسة الرسالة، بيروت الطبعة الأولى ١٣٩٩ هـ – ١٩٧٩ م قال ابن كثير: فهذا الحديث ضعيف رفعه وأقرب ما فيه أنه موقوف على عمر، وانظر : الإتقان في علوم القرآن للسيوطي ٢٨٤/٤. الهيئة المصرية العامة للكتاب الطبعة ١٣٩٤هـ/ ١٩٧٤ م

[٢] – أنوار التنزيل وأسرار التأويل ٥/ ١٤٦. للبيضاوي دار إحياء التراث العربي – بيروت الطبعة الأولى ١٤١٨ هـ

ورتبي باعتبار تفاوت مراتبها في الدلالة على قدرته تعالى، أقسم الله بهذه الأشياء لشرف ذواتها، ولما فيها من الدلالة على عجيب صنعته وقدرته لكونها أمورا بديعة مخالفة لمقتضى العادة، فمن قدر عليها فهو قادر على البعث الموعود به.

قال الشيخ المراغي :وجاءت الآية هكذا مصدرة بالقسم ، لأن المتكلم إذا بدأ كلامه به علم السامع أن هاهنا كلاما عظيما يجب أن يصغى إليه، فإذا وجه همه لسماعه خرج له الدليل والبرهان المتين في صورة اليمين[1].
ثم يأتي القسم مرة أخرى بالسماء ذات الخلق الحسن السوي القوي ، أو ذات الطرائق والممرات ، أو ذات الزينة والكواكب ، إنكم يا معشر قريش مختلفو القول ، مضطربو الرأي ، في شأن القرآن ومن نزل عليه القرآن ، فما من أحد منكم يردد قولا حتى يأتي آخر بقول يناقضه ويخالفه مما يجعل من أقوالكم مثارا للسخرية وعدم المصداقية ، لظهور تناقضها ، وتهافتها ، فمثلا : تقولون عن القرآن : شعر ، ثم يأتي منكم آخرون فيقولون :سحر ، وآخرون يقولون : أساطير الأولين ، وآخرون يقولون : يعلمه بشر ، ومنكم من يقول : تنزلت به الشياطين ، ومنكم من يقول : إن محمدا صادق أمين ، ثم تقولون : تقوله وكذبه على ربه ، ومنكم من يقول : قول كاهن ،وكما اختلف قولكم وتناقض في شأن القرآن ، فكذلك الحال فيما يتعلق بسيدنا رسول الله : فمرة تقولون : شاعر، ومرة تقولون: ساحر، وأخرى تقولون : كاهن ، وأحيانا تقولون : مجنون ، ثم تقولون

---

[1] – تفسير المراغي لفضيلة الشيخ/ أحمد بن مصطفى المراغي مطبعة مصطفى الحلبي الطبعة الأولى ١٣٦٥ هـ – ١٩٤٦ م

له: إنك تغلبنا بقوة جدلك، والمجنون كيف يقدر على الكلام المنتظم المعجز ، فلستم على رأي واحد ، وليست أقوالكم مما يؤكد بعضها بعضا ، أو يساوق أحدها الآخر ، وإنما يناقض بعضها بعضا ويخالفه ، فأنتم قبل أن نرد عليكم تردون على أنفسكم مما يدل على تحيركم وتخبطكم ، وعليه، فالقسم هنا للتأكيد على أن أقوالهم فيما بينها مختلفة ومتهافتة ، قال الإمام البيضاوي: ولعل النكتة في هذا القَسَم: تشبيه أقوالهم في اختلافها، وتباين أغراضها، بطرائق السماوات في تباعدها، واختلاف غاياتها[١]، ولذا فإن الله يصرف عن الإيمان بهذا القرآن وعن الإيمان برسوله – صلى الله عليه وسلم – وعن الخير إلى الشر، من علم الله حرصه على الانصراف عن الإيمان في سابق علمه سبحانه ، وأيضا بما ظهر من أصراهم على الشر ، كما في قوله سبحانه : (وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ)[٢]، وكما في قوله تعالى : (فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ)[٣]، وقوله عز شأنه : (قُلْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا)[٤] ، وحيث كانت الرغبة عندهم تحصيل الكفر والموت عليه ، فقد حقق الله لهم ما أرادوا بأن قبحهم ولعنهم (قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ)، أي لعن الكذابون المختلفون، المرتابون في وعد الله تعالى ووعيده، الذين هم في جهالة عظيمة تغمرهم، وغفلة شديدة في

---

[١] – أنوار التنزيل وأسرار التأويل للبيضاوي ٥/ ١٤٦، دار إحياء التراث العربي – بيروت الطبعة الأولى ١٤١٨ هـ

[٢] – سورة الأنفال ، آية : ٣٢

[٣] – سورة الصف ، آية : ٥

[٤] – سورة مريم ، آية : ٧٥

الكفر تخيم عليهم ، ومن كان هذا شأنه ، فإن لعنة الله لا محالة تدركه لاعتقادهم الفاسد ، ولقولهم السوء من غير دليل أو برهان لعظيم غفلتهم التي حرمتهم نعمة التأمل والتفكر والتعقل فصار حالهم حال من غلب السكر على عقله ، فجعل يهذى من غير وعي وإدراك . هؤلاء الخراصون الكذابون هم في سكرة من الجهل والغباء، إلى ما فيهم من عناد واستكبار، ومن إفك وضلال وكذب هؤلاء الخراصين ، سؤالهم عن يوم القيامة ، على سبيل الإنكار له ، والاستهزاء منه ، والسخرية ممن يقول به ، ويؤمن بوقوعه ، (يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ) ، وهذه الآية نظير قوله تعالى : (وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ)[1] ، وقد جاء التعبير بالاستفهام عن زمن وقوع البعث بقوله – أيان – التي يستفهم بها عن المكان ، للإشارة إلى أنهم ينكرون وقوع البعث ، زمانا ومكانا، فلا وقوع للبعث في أي مكان، ولا في أي زمان ، وهذا على سبيل المبالغة منهم في إنكار وجحود البعث ،كأن القوم يقولون أين هذا اليوم ؟ إنه لا وجود له أصلا ، ولا ينتظر القرآن كثيرا ، بل يأتي بالرد سريعا ، فيقول سبحانه مجيبا على سؤالهم الإنكاري:

(يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ) ، أي سيعرفونه (يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ) أي يوم يحرقون فيها ، ويعذبون على جمرها ، وقد عدل عن الخطاب إلى الغيبة، إبعادا للمشركين عن مقام الحضور، وطردا لهم من مقام أهلية الاستماع إليهم، والرد عليهم[2]، ثم يقال لهم على سبيل التوبيخ والتأنيب :

---

[1] – سورة يس ، آية : ٤٨

[2] – التفسير القرآني للقرآن لعبد الكريم يونس الخطيب ١٣/ ٥٠٧ دار الفكر العربي – القاهرة

(ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ هذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ) ليضاف إليهم مزيدا من العذاب المعنوي زيادة على ما هم من العذاب الحسي ، والتعبير بقوله : ذوقوا ، أمر توبيخ وإهانة ، أي : تقول لهم خزنة النار: ذوقوا عذابكم أو حريقكم، هذا العذاب الذي كنتم تطلبون تعجيله، استهزاء منكم به ، وظنا منكم أنه غير كائن، ها هو أمامكم فهل يمكنكم إنكاره ، أو السخرية منه كما كنتم تفعلون في الدنيا؟ ، وتقولون- على سبيل الاستهزاء والإنكار- للنبي – صلى الله عليه وسلم – ولأصحابه : (مَتى هذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ). وبهذا تكون الآيات الكريمة قد أكدت بأبلغ الأساليب على أن البعث والجزاء حق، وأن المكذبين بذلك واهمون غافلون ، وأنهم سيذوقون أشد ألوان العذاب.

ثم تنتقل بنا الآيات الكريمة إلى فريق آخر ، ليس لديه شك ، أو تخمين، ولا يعيش في مستنقع الغفلة ، أو الحيرة أو التيه ، وإنما هو فريق يقظ ، مستيقن ، لا يتخرص ، تقي ، لا يتبجح ، محسن ، مستغفر، إنهم المتقون وكفى ، وفيهم جاء الحديث في الموضع التالي:

الموضوع الثاني : المتقون وصفاتهم

يقول سبحانه : (إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ، آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ ، كَانُوا قَلِيلًا مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ، وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ، وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ، وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ ، وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ، وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ، فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ) الآيات من ١٥ : ٢٣

مناسبة الآيات لما قبلها

بعد أن ذكر حال المكذبين الذين كذبوا بيوم الدين، وأنكروا البعث ، وأنكروا نبوة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم – أتبع ذلك ببيان حال المتقين وما يتمتعون به من النعيم المقيم بسبب ما كان منهم من عمل صالح.
قال الإمام القرطبي :

لما ذكر مآل الكفار ذكر مآل المؤمنين ، أي هم في بساتين فيها عيون جارية على نهاية ما يتنزه به[1]

١ – (آخِذِينَ): حال من الضمير في خبر *إن* ، أي : كائنون في جنات وعيون، حال كونهم آخذين ما آتاهم ربهم ، أي راضين به[2].

٢ – (يَهْجَعُونَ) : ينامون، والهجوع النوم ليلا، والتهجاع النومة الخفيفة، يقال: هجع يهجع هجوعا، وهبغ يهبغ هبوغا بالغين المعجمة إذا نام، قاله الجوهري. وقليلا في قوله : (كَانُوا قَلِيلًا مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ) ، يجوز أن تكون نعتا لمصدر محذوف، أي كانوا يهجعون هجوعا قليلا، وما زائدة و ما يجوز أن تكون مصدرية في موضع رفع ب قليلا، أي كانوا قليلا

[1] – الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٣٥/١٧، دار الكتب المصرية – القاهرة الطبعة الثانية ١٣٨٤هـ – ١٩٦٤ م

[2] – حاشية الصاوي على تفسير الجلالين ١٨٥١. وحاشية الجمل على الجلالين ٧/ ٢٧٩ دار الكتب العلمية بيروت الطبعة الأولى: ١٤٢٧ هـ.

هجوعهم ، ويجوز أن تكون موصولة بمعنى الذي، والعائد محذوف تقديره: كانوا قليلا من الليل من الوقت الذي يهجعون فيه.[١]

٣ – (وَبِالْأَسْحارِ) ، الأسحار : جمع سحر، وهو الجزء الأخير من الليل.

٤ – (وَفِي أَمْوَالِهِمْ) ، أضاف المال إليهم هنا ، وقال في مواضع : (أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ)[٢] وقال : (وَمِمَّا رَزَقْناهُمْ يُنْفِقُونَ)[٣] نقول : سببه أن في تلك المواضع كان الذكر للحث، فذكر معه ما يدفع الحث ويرفع المانع، فقال هو رزق الله والله يرزقكم فلا تخافوا الفقر وأعطوا، وأما هاهنا فمدح على ما فعلوه فلم يكن إلى الحرص حاجة.[٤]

٥ – (حَقٌّ) ، : الحاء والقاف أصل واحد، وهو يدل على إحكام الشيء وصحته. فالحق نقيض الباطل، ويقال : حق الشيء وجب[٥]. أي جزء مقسوم قد أفرزوه للسائل والمحروم.

٦– (وَالْمَحْرُومِ) : هو المحارف، بفتح الراء: الذي يحترف بيديه ، ولا يبلغ كسبه ما يقيمه وعياله ، لأنه قد حرم سهمه من الغنيمة، لا يغزو

---

[١] – البحر المحيط لأبي حيان بتصرف ، ٩/ ٥٥١ ، دار الفكر – بيروت الطبعة ١٤٢٠ هـ

[٢] – سورة يس آية : ٤٧

[٣] – سورة البقرة آية : ٣ ، وسورة الشورى آية : ٣٨

[٤] – مفاتيح الغيب للرازي ١٧٠/٢٨ ، دار إحياء التراث العربي – بيروت الطبعة الثالثة ١٤٢٠ هـ

[٥] – مقاييس اللغة لابن فارس ٢/ ١٥، دار الفكر ١٣٩٩هـ – ١٩٧٩م.

مع المسلمين، فبقي محروما، فيعطى من الصدقة ما يسد حرمانه[1]. وقيل: المحروم الذي لا ينمي له مال[2].

٧- (لِلْمُوقِنِينَ) اسم فاعل من أيقن ، وأصلها: الميقنين، من: أيقنت ، واليقين: إزاحة الشك وتحقيق الأمر[3]. وقيل : الموقن : العالم بالشيء بعد حيرة الشك ، والشاهد أنهم يجعلونه ضد الشك ، فيقولون : شك ويقين ، وقلما يقال : شك وعلم ، فاليقين ما يزيل الشك دون غيره من أضداد العلوم. وهذا بخلاف العلم الذي هو اعتقاد الشيء على ما هو به على سبيل الثقة ، وأما اليقين ، فهو سكون النفس ، وثلج الصدر بما علم ، ولهذا لا يجوز أن يوصف الله تعالى باليقين[4] .

٨- (السَّمَاءِ) : سماء كل شيء: أعلاه، مذكر. والسماء: سقف كل شيء وكل بيت وقال الزجاج: السماء في اللغة ، يقال لكل ما ارتفع وعلا: قد سما يسمو. وكل سقف فهو سماء، ومن هذا قيل للسحاب : السماء ، لأنها عالية، والسماء: كل ما علاك فأظلك؛ والسماء: السحاب. والسماء:

---

[1] - تاج العروس من جواهر القاموس للزَّبيدي فصل الحاء مع الفاء مادة حرف ١٣ / ١٣٧، دار الفكر - بيروت الطبعة الأولى ١٤١٤ هـ

[2] - لسان العرب لابن منظور باب الميم - فصل الحاء ١٢/ ١٢٥ ، دار صادر - بيروت الطبعة الثالثة ١٤١٤ هـ

[3] - تهذيب اللغة ١٥/ ٤٨٣ ، ٢٤٥/٩ مقاييس اللغة ٦/ ١٥٧.

[4] - الفروق اللغوية لأبي هلال العسكري ٨١/١، دار العلم والثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة - مصر ، والمصباح المنير في غريب الشرح الكبير لأبي العباس الفيومي ٢ / ٦٨١ المكتبة العلمية - بيروت.

المطر، مذكر. يقال: ما زلنا نطأ السماء حتى أتيناكم أي المطر، ومنهم من يؤنثه[١]

٩- (رِزْقُكُمْ) ، يقول ابن فارس رحمه الله : الراء والزاي والقاف أُصَيْلٌ واحد يدل على عطاء لوقت، ثم يحمل عليه غير الموقوت. فالرزق: عطاء الله جل ثناؤه. ويقال رزقه الله رزقا، والاسم : الرِّزْقُ. وَالرِّزْقُ : الشكر، من قوله جل ثناؤه: (وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ)[٢]. وفعلت ذلك لما رزقتني، أي لما شكرتني[٣].الرزق، بالكسر: ما ينتفع به، وقيل: هو ما يسوقه الله إلى الحيوان للتغذي، أي: ما به قوام الجسم ونماؤه ،وقد يسمى المطر رزقا ، وذلك قوله تعالى: وَمَا أَنْزَلَ اللهُ من السَّماءَ من رِزْقٍ فأحْيا بهِ الأَرضَ بعدَ مَوْتِها) ، وقال تعالى: (وَفِي السَّماءَ رِزْقُكُم وَمَا توعَدُونَ) قال مجاهد: وهو المطر[٤].

١٠- (إِنَّهُ لَحَقٌّ) الضمير في «إنه لحق» : إما للقرآن، وإما للدين، وإما لليوم في قوله: (وَإِنَّ الدين لَوَاقِعٌ)[٥] ، (يَوْمَ هُم)[٦] ، (يَوْمُ الدين)[٧] وإما

---

[١] – لسان العرب لابن منظور باب الواو والياء من المعتل- فصل السين المهملة ١٤/ ٣٩٨، وما بعدها بتصرف.

[٢] – سورة الواقعة ، آية : ٨٢

[٣] – معجم مقاييس اللغة لابن فارس٢/ ٣٨٨، دار الفكر ١٣٩٩هـ – ١٩٧٩م.

[٤] – تاج العروس من جواهر القاموس للزَّبيدي فصل الراء مع القاف مادة رزق ٣٣٥/٢٥

[٥] – سورة الذاريات آية : ٦

[٦] – سورة الذاريات آية: ١٣

[٧] – سورة الذاريات آية : ١٢

للنبي صلى الله عليه وسلم[1].

القراءات

١ – قوله : (مِثْلَ مَا) ، الأخوان[2] وأبو بكر «مثل» بالرفع، على أنه خبر ثان مستقل كالأول ، أو أنه نعت ل «حق». والباقون بالنصب على أنه نعت ل «حق» كما في القراءة الأولى، وإنما بني الاسم لإضافته إلى غير متمكن، أو على أنه نعت لمصدر محذوف أي: لحق حقا مثل نطقكم [3].

٢ – قوله : (وَعُيُونٍ)، كسر العين المكي وابن ذكوان وشعبة والأخوان، وضمها غيرهم[4].

المعنى العام

بعد أن بينت الآيات السابقة حال الكفار، وما سيلقون من العذاب الشديد يوم القيامة جاءت هذه الآيات على سبيل بيان حال المتقين، وما سيلقون

---

[1] – الدر المصون في علوم الكتاب المكنون السمين الحلبي ٤٦/١٠، دار القلم، دمشق

[2] – يقصد بالأخوان : حمزة والكسائي سميا بذلك لكثرة اصطحابهما في قراءتهما حتى لا يكادان يفترقان إلا في اليسير . البدور الزاهرة في القراءات العشر المتواترة للشيخ عبد الفتاح القاضي ، ص : ١١

[3] – – الدر المصون في علوم الكتاب المكنون السمين الحلبي ٤٩/١٠ ، وما بعدها. وتحبير التيسير في القراءات العشر لابن الجزري، دار الفرقان – الأردن / عمان الطبعة الأولى ١٤٢١هـ – ٢٠٠٠م

[4] – البدور الزاهرة في القراءات العشر لعبد الفتاح القاضي ص : ٤٢١. دار السلام – القاهرة الطبعة الثانية، ١٤٢٦ / ٢٠٠٥

من النعيم المقيم في هذا اليوم ، وفي ذلك نوع مقارنة رائعة بين الفريقين ليظهر الفرق بين الحق والباطل ، والإيمان والكفر ، فتذكر الآيات الكريمة أن المتقين الذين اتقوا ربهم بالتزام أوامره واجتناب نواهيه ، هم في الآخرة في جنات تجري من تحتها الأنهار، فيها ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر ،وقد اكتفت الآيات في التعبير عن هذا النعيم بالقول : (فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ) ، هكذا على سبيل الإجمال ، كما في قوله تعالى : (وَفِيها ما تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنْتُمْ فِيها خالِدُونَ)[١]، وقوله : (فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)[٢] ، تاركة التفاصيل على سبيل تقريب الصورة لسور أخرى ، ذلك لأن العقول لا تستطيع أن تستوعب حقيقة ما في الجنة ، وهي لا تزال على ظهر الحياة الدنيا ، وعلى أية حال ، فإن أهل الجنة مسرورة قلوبهم بذلك النعيم ، قريرة به أعينهم ، (آخِذِينَ ما آتاهُمْ رَبُّهُمْ) أي: أنهم منعمون في الجنات وما اشتملت عليه من عيون جارية، حالة كونهم آخذين وقابلين لما أعطاهم ربهم من فضله وإحسانه ، ثم ذكر الثمن الذي دفعوه لنيل هذا الأجر العظيم فقال: (إِنَّهُمْ كانُوا قَبْلَ ذلِكَ) في الدنيا (مُحْسِنِينَ) في أعمالهم الصالحة، بأن كانوا يراقبون الله تعالى فيها، لاعتقادهم بأن الله يراهم ، فجازاهم الله بإحسان أعظم ، كما قال تعالى:

---

[١] – سورة الزخرف ، آية ٧١

[٢] – سورة السجدة آية : ١٧

(هَلْ جَزاءُ الْإِحْسانِ إِلَّا الْإِحْسانُ)[1]. وكما في قوله سبحانه: (كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئاً بِما أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخالِيَةِ)[2].

ومن جميل إحسانهم في العمل: أنهم كانوا يذكرون الله ذكرا كثيرا ، ولذلك صاروا لا ينامون إلا زمنا قليلا من الليل ، ولا يعطون لأنفسهم حظها من النوم لانشغالهم بذكر الله تعالى ، سواء بتلاوة القرآن ، أو بالصلاة ، أو بالتسبيح ، والتحميد ، والتكبير ، إلخ.

ومن إحسانهم : أنهم (وَبِالْأَسْحارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ) ، أي :أنهم كانوا في الجزء الأخير من الليل يتضرعون إلى الله تعالى طالبين منه الرحمة والمغفرة، رغم أنهم قضوا ليلهم في العبادة ، وكأنهم باتوا في معصية. وهذا شأن الكريم يأتي بأبلغ وجوه الكرم ، ويستقله ، ويعتذر من التقصير، واللئيم يأتي بالقليل ، ويستكثره ، ويمن به. يقول صاحب اللباب : فإن في هذا إشارة إلى أن نومهم عبادة ، حيث مدحهم الله بكونهم هاجعين قليلا ، وذلك الهجوع أورثهم الاشتغال بعبادة أخرى.[3] ويقول العلامة أبو حيان : فيه ظهور على أن تهجدهم يتصل بالأسحار، فيأخذون في الاستغفار مما يمكن أن يقع فيه تقصير وكأنهم أجرموا في تلك الليالي، والأسحار مظنة الاستغفار.[4]

---

[1] سورة الرحمن ، آية ٦٠

[2] – سورة الحاقة ، آية : ٢٤

[3] – اللباب في علوم الكتاب لابن عادل ١٨/ ٧١ .دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان الطبعة الأولى ١٤١٩ هـ –١٩٩٨م

[4] – البحر المحيط في التفسير لأبي حيان ٥٥٢/٩. دار الفكر بيروت الطبعة ١٤٢٠ هـ

ويقول الشيخ عبدالكريم الخطيب رحمه الله:

استغفارهم في آخر الليل، الذي قطعوه تسبيحا وذكرا، وترتيلا وصلاة- إشارة إلى أنهم يرون أن ما قاموا به من تسبيح وذكر، وصلاة، وترتيل- لم يستوف ما لله من حق عليهم، في عبادته وتسبيحه، فهم لهذا يستغفرون ربهم، ليتجاوز عن تقصيرهم في حقه[١].

قلت : ويؤيد هذا ما جاء في حديث أبي هريرة – رضي الله تعالى عنه – أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم قال: ينزل ربنا كل ليلة إلى سماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الأخير ، فيقول : من يدعوني فأستجيب له؟ من يسألني فأعطيه؟ من يستغفرني فأغفر له؟[٢] وتخصيص النزول بالثلث الأخير من الليل ، لأن ذلك وقت التهجد ، والدعاء ، وغفلة أكثر الناس عن التعرض لنفحات رحمة الله – تعالى – وفي ذلك الوقت تكون النية خالصة ، والرغبة إلى الله تعالى متوفرة ، فهو مظنة لقبول الإجابة والله تعالى أعلم[٣].

---

[١] – التفسير القرآني للقرآن للدكتور/عبد الكريم الخطيب ١٣/٥١٠ دار الفكر العربي – القاهرة

[٢] – أخرجه البخاري في صحيحه في كتاب التهجد باب الدعاء في الصلاة من آخر الليل حديث رقم ١١٤٥ . وأخرجه مسلم في صحيحه في كتاب صلاة المسافرين وقصرها – باب الترغيب في الدعاء والذكر في آخر الليل، والإجابة فيه برقم ١٦٨ – (٧٥٨)

[٣] – لباب التأويل في معاني التنزيل للخازن ١٩٣/٤. دار الكتب العلمية – بيروت الطبعة الأولى ١٤١٥ هـ

ثم تنتقل بنا الآيات إلى بيان صفة أخرى من صفات هؤلاء المتقين ، فيقول سبحانه:

(وَفِي أَمْوالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ) ، ومناسبتها لما قبلها أن الله تعالى بعد أن ذكر معرفة المتقين لحقه سبحانه شرع في ذكر معرفتهم لحق خلقه ، والمعنى : أنهم مع قيامهم الليل تقربا إلى الله- تعالى- ومع استغفارهم ربهم من ذنوبهم ، أو هضما لأنفسهم ، أو على سبيل التعبد لله سبحانه – إذا بهم يوجبون على أنفسهم حقا في أموالهم للسائل والمحروم ، لإيمانهم بأن المال مال الله ، قال تعالى :(وَآتُوهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ)[1] ، واستجابة لأمره – عز وجل – في قوله: (آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ)[2]، ثم بمقتضى ما جبلوا عليه من كرم وسخاء ، وتصديقا منهم بوعد الله الوارد في قوله :(وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ)[3] ، وعلى أي حال ، فإن المراد بالحق الوارد في الآية : ما يخرجونه من أموالهم للمحتاجين على سبيل التطوع ، وليس المراد به الزكاة المفروضة ، لأن السورة مكية ، والزكاة إنما فرضت في السنة الثانية من الهجرة. قال الإمام أبو حيان : والظاهر أن قيام الليل وهذا الحق في المال هو من المندوبات، وأكثر ما تقع زيادة الثواب بفعل المندوب.[4]

---

[1] – سورة النور ، آية : ٣٣

[2] – سورة الحديد ، آية : ٧

[3] – سورة سبأ ، آية : ٣٩

[4] – البحر المحيط في التفسير لأبي حيان ٥٥٢/٩.

قال الآلوسي : (وَفِي أَمْوالِهِمْ حَقٌّ) ، هو غير الزكاة ، كما قال ابن عباس ، ومجاهد ، وغيرهما. وقال منذر بن سعيد: هذا الحق هو الزكاة المفروضة ، وتعقب بأن السورة مكية. وفرض الزكاة بالمدينة. وقيل: أصل فريضة الزكاة كان بمكة ، والذي كان بالمدينة القدر المعروف اليوم ... والجمهور على الأول.

قلت :الراجح : القول بأن المقصود بالحق في الآية الكريمة ما كان على سبيل التطوع ، بقرينة ذكره في بيان الإحسان في قوله : (إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ)[١]، ومن المعلوم أن الإحسان يقابل الفرض ، وأيضا بقرينة ذكره مع مندوبات ، وبمكية السورة الكريمة.

أقول : الخلاصة : أن هذه الآيات الكريمة قد وردت في سياق مدح المتقين ، وأن من صفاتهم أنهم عرفوا حق الله فيما وهبهم من المال ، فأدوه بإحسان وإخلاص ، وعرفوا حق الناس من سائل ، يطلب ، أو محروم يتعفف عن السؤال ، فقدموه بكرم وسخاء ، وقد جعلوا نصيب هذا وهذا حقا مفروضا في أموالهم غير محدود ، على سبيل التطوع منهم. ثم تأتي الآية التالية :(وَفِي الْأَرْضِ آياتٌ لِلْمُوقِنِينَ) ، على سبيل بيان الأمور التي تقوي اليقين ،وترتقى بالإيمان ، وتسمو بالإنسان إلى دائرة الإحسان ، فإذا أراد أحد أن يصل إلى هذا الذي وصل إليه المتقون الموصوفون بما سبق من الصفات ، فإن عليه أن يتصف بما سيذكر في هذه الآيات الكريمة ، والتي تبدأ بقوله تعالى : (وَفِي الْأَرْضِ آياتٌ لِلْمُوقِنِينَ) ، فتحرض الآية الكريمة السالكين إلى أن تكون لهم عيون

[١] – سورة الذاريات ، آية : ١٦

تتأمل في هذا الكون ، وتبحث عما فيه من آيات تشهد بما لله تعالى من علم ، وحكمة ، وقدرة ، وسلطان. وهذه الآية كما يقول الشيخ الطاهر بن عاشور : متصلة بالقسم وجوابه من قوله: (وَالذَّارِياتِ)[1] ، وقوله : (وَإِنَّ الدِّينَ لَواقِعٌ) إلى قوله: (وَالسَّماءِ ذاتِ الْحُبُكِ)[2] فبعد أن حقق وقوع البعث بتأكيده بالقسم انتقل إلى تقريبه بالدليل لإبطال إحالتهم إياه، فيكون هذا الاستدلال كقوله تعالى: (وَمِنْ آياتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خاشِعَةً فَإِذا أَنْزَلْنا عَلَيْهَا الْماءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْياها لَمُحْيِ الْمَوْتى)[3] ، وما بين هاتين الجملتين اعتراض، فجملة : (وَفِي الْأَرْضِ آياتٌ لِلْمُوقِنِينَ). يجوز أن تكون معطوفة على جملة جواب القسم ، وهي : (إِنَّما تُوعَدُونَ لَصادِقٌ)[4] .

قلت : ومعنى الآية : وفيما ترون وتشاهدون من أحوال الأرض آيات للموقنين ، مثل إنبات النبات ، ومن حيث موقعها من الشمس ، بما يحقق وصول الحرارة والضوء الضروريين لحياة الإنسان وما سخر له من النبات ، والطير ، والحيوان ، ومن حيث تمهيدها وتذليلها للإنسان لاستغلال ما فيها من كنوز كامنة في باطنها ، إضافة إلى استغلال النعم الظاهرة منها ، ومن حيث تكوينها من جبال ، وسهول ، ووديان ، وماء ، ويابسة ، وغير ذلك من الآيات الباهرات ، وبنسب دقيقة محكمة ، وكل هذه الآيات واضحة ، جلية ، لا تحتاج إلى إعمال فكر ، ولا إلى عظيم

---

[1] سورة الذاريات آية : ١

[2] – سورة الذاريات ، الآيات : ٦، ٧

[3] – سورة فصلت ، آية : ٣٩

[4] – سورة الذاريات ، آية : ٥

بحث ، ولذلك جاءت الآية هكذا : (وَفِي الْأَرْضِ آياتٌ لِلْمُوقِنِينَ)[١]. بدون أن تقرن بما يحض على التأمل والتبصر ، كما في قوله: (وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ)[٢].

يقول صاحب كتاب الإعجاز العلمي في القرآن الكريم :

وقد أثبت العلم الحديث أن توزيع اليابس والماء على الأرض ووجود سلاسل الجبال عليها مما يحقق الوضع الذي عليه الأرض. وقد ثبت أن الجبال الثقيلة دائما أسفلها مواد هشة وخفيفة ، وأن تحت ماء المحيطات توجد المواد الثقيلة الوزن ، وبذلك تتوزع الأوزان على مختلف الكرة الأرضية ، وهذا التوزيع الذي أساسه الجبال دائما قصد به حفظ توازن الكرة الأرضية ، ولما ارتفعت الجبال حدثت السهول ، والوديان ، والممرات بين الجبال ، وشواطئ البحار ، والمحيطات ، والهضاب ، وكانت سبلا وطرقا.[٣]

قلت : والتعبير بقوله «لِلْمُوقِنِينَ» – إشارة إلى أنه لن ينتفع بتلك الآيات إلا أهل اليقين ، لأنهم الذين يبحثون عن الحق والصواب ، وبالتالي هم يبحثون في كل مجال ، ويفتشون في كل ميدان يقودهم إلى العلم والمعرفة،لأن نفوسهم قد صفت من اتباع الهوى ، وعقولهم قد نبذت طريق الغوى ، وأرواحهم اشتاقت إلى نور الهدى ، فحيث علموا بالحق

---

[١] – سورة الذاريات آية : ٢٠

[٢] – سورة الذاريات آية : ٢١

[٣] – الإعجاز العلمي في القرآن الكريم للأستاذ / سعيد صلاح الفيومي ص :٤٦ مكتبة القدسي – القاهرة الطبعة الأولى ١٤٢٤ / ٢٠٠٤

انقادوا له واتبعوه ، فكانوا أعظم الناس نفعا بالحق ، بل كأن الحق لم ينزل إلا من أجلهم ، ولذلك نجد كثيرا من آي الذكر الحكيم تصرح بأن القرآن هدى لهم (ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ)[1]،وقال تعالى : (تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُبِينٍ ، هُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ)[2] ، ويقول أيضا : (تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ ، هُدًى وَرَحْمَةً لِلْمُحْسِنِينَ)[3]، فهؤلاء المتقون هم الذين يحرصون على النظر في آيات الله الكونية ليزدادوا إيمانا على إيمان، ثم تنتقل الآيات الكريمة إلى آية أخرى من آيات الله في خلقه ، إنها ليست آية كونية كتلك التي سبقت ، ولكنها آية كامنة داخل الإنسان، وليست بخارجه ، فيقول سبحانه :(وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلا تُبْصِرُونَ) ، أي : ومن دلائل القدرة الإلهية أن تنظروا أيها العقلاء في داخل أنفسكم ، لتروا عجيب صنع الله عز وجل ، إنكم إن فعلتم ستجدون في ذات أنفسكم عالما عجيبا في تكوينكم ، من وجود الإنسان نطفة ، ثم علقة ، ثم مضغة، وهكذا إلى أن صار بشرا سويا ، إنكم إن تأملتم ستجدون ما يدهش العقول من الآيات الدالة على عظمة إبداع الخالق ، وعلى باهر حكمته، وعلى بديع صنعه. والاستفهام هنا توبيخ وتعنيف، لهؤلاء الذي عموا عن مشاهد القدرة الإلهية، وآثارها الناطقة في كل ما خلق الخالق جل وعلا. وقد أجاد الإمام القرطبي رضي الله عنه – في تفسير هذه الآية وأفاد فقال :

---

[1] – سورة البقرة ، آية : ٢

[2] – سورة النمل آية : ١،٢

[3] – سورة لقمان آية ٢ ،٣

قوله تعالى :(وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلا تُبْصِرُونَ) قيل: التقدير وفي الأرض وفي أنفسكم آيات للموقنين. وقال قتادة: المعنى من سار في الأرض رأى آيات وعبرا، ومن تفكر في نفسه علم أنه خلق ليعبد الله. ابن الزبير ومجاهد: المراد سبيل الخلاء والبول. وقال السائب ابن شريك: يأكل ويشرب من مكان واحد ويخرج من مكانين، ولو شرب لبنا محضا لخرج منه الماء ومنه الغائط، فتلك الآية في النفس. وقال ابن زيد: المعنى أنه خلقكم من تراب، وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة (ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ)[١] السدي: (وفي أنفسكم) أي في حياتكم وموتكم، وفيما يدخل ويخرج من طعامكم. الحسن: وفي الهرم بعد الشباب، والضعف بعد القوة، والشيب بعد السواد. وقيل: المعنى وفي خلق أنفسكم من نطفة وعلقة ومضغة ولحم وعظم إلى نفخ الروح، وفي اختلاف الألسنة والألوان والصور، إلى غير ذلك من الآيات الباطنة والظاهرة، وحسبك بالقلوب وما ركز فيها من العقول، وما خصت به من أنواع المعاني والفنون، وبالألسن والنطق ومخارج الحروف والأبصار والأطراف وسائر الجوارح، وتأتيها لما خلقت له، وما سوى في الأعضاء من المفاصل للانعطاف والتثني، وأنه إذا جسا شيء منها جاء العجز، وإذا استرخى أناخ الذل (فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ)[٢] . (أفلا تبصرون) يعني بصر القلب ليعرفوا كمال قدرته. وقيل: إنه نجاح العاجز، وحرمان الحازم. قلت: كل ما ذكر مراد في الاعتبار.

---

[١]– سورة الروم ، آية : ٢٠

[٢] – سورة المؤمنون ، آية : ١٤

وعلى أي حال فما في بدن الإنسان الذي هو العالم الصغير شيء إلا وله نظير في العالم الكبير[1].

ثم تنتقل بنا الآيات إلى ذكر منة أخرى من الله سبحانه على عباده فيقول سبحانه: «وَفِي السَّماءِ رِزْقُكُمْ وَما تُوعَدُونَ» أي، وانظروا يا عبادي إلى السماء وما أودع فيها من الآيات الباهرات ، واعلموا أن فيها أسباب رزقكم، بما ينزل منها من ماء، يكون سببا لحياتكم وحياة أنعامكم ، وكذلك ، انظروا إلى ما يجرى فيها من شمس، وقمر، وكواكب، ونجوم في نظام دقيق ، متقن ، محكم، لا يصطدم واحد منها بالآخر ، ولا يسبق أحدها غيره ، قال تعالى : (وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ، وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ ، لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ)[2] بل إن في السموات كذلك مقدّرات الأمور ، قال سبحانه : «وَيُنَزِّلُ لَكُمْ مِنَ السَّماءِ رِزْقاً»[3] و يقول عز شأنه: «يُنَزِّلُ الْمَلائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلى مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ»[4] والتعبير بالسماء هنا، إشارة إلى جلال الله، وعظمته، وقيوميته على هذا الوجود. ثم يقول تعالى: «فَوَ رَبِّ السَّماءِ وَالْأَرْضِ.. إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ ما أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ» ، أقسم الله سبحانه وتعالى بذاته العلية، واصفا إياها بأنه رب السموات والأرض ومدبر أمرهما.. وجواب القسم هنا أنه سبحانه المالك للأرزاق، والمقدّر لها ، ويمكن أن

---

[1] – الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١٧/٤٠ بتصرف.

[2] – سورة يس الآيات من ٣٨ : ٤٠

[3] – سورة غافر ، آية : ١٣

[4] – سورة النحل آية : ٢

يكون جواب القسم كلّ ما وقعت عليه الأقسام السابقة، من صدق ما يوعد الناس به من بعث ، وحساب ، وجزاء، وما جاء من أخبار عن نعيم أهل الجنة، وعذاب أهل النار، ثم ما أخبر به جل شأنه، من أنه المالك للأرزاق، والمقدّر لها، كما أنه مالك يوم الدين، وما يلقى الناس في هذا اليوم.

هذا ، وقد اختلفت كلمة العلماء حول قضية الرزق أهو كل ما ينتفع به حلالا كان أو حراما؟ أم هو فاصر على ما كان من الحلال فقط؟

– ذهب المعتزلة إلى إن الحرام ليس برزق لأنه لا يصح تملكه، وأن الله لا يرزق الحرام وإنما يرزق الحلال.

– وقالوا أيضا : إن الرزق لا يكون إلا بمعنى الملك. قالوا: فلو نشأ صبي مع اللصوص ، ولم يأكل شيئا إلا ما أطعمه اللصوص إلى أن بلغ وقوي وصار لصا ، ثم لم يزل يتلصص ويأكل ما تلصصه إلى أن مات ، فإن الله لم يرزقه شيئا إذ لم يملكه ، وإنه يموت ولم يأكل من رزق الله شيئا.

– ويرى أهل السنة أن الرزق كل ما صح الانتفاع به حلالا كان أو حراما. قالوا : وما ذهب إليه المعتزلة فاسد، والدليل عليه أن الرزق لو كان بمعنى التمليك لوجب ألا يكون الطفل مرزوقا، ولا البهائم التي ترتع في الصحراء، ولا السخال من البهائم، لأن لبن أمهاتها ملك لصاحبها دون السخال. ولما اجتمعت الأمة على أن الطفل والسخال والبهائم مرزوقون، وأن الله تعالى يرزقهم مع كونهم غير مالكين علم أن الرزق هو الغذاء ولأن الأمة مجمعة على أن العبيد والإماء مرزوقون، وأن الله تعالى يرزقهم مع كونهم غير مالكين، فعلم أن الرزق ما قلناه ، لا ما

قالوه. والذي يدل على أنه لا رازق سواه قوله الحق:" هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ"[1] وقال:" إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ"[2] وقال:" وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا"[3] وهذا قاطع، فالله تعالى رازق حقيقة وابن آدم رازق تجوزا، لأنه يملك ملكا منتزعا ، مرزوق حقيقة كالبهائم التي لا ملك لها، إلا أن الشيء إذا كان مأذونا له في تناوله فهو حلال حكما، وما كان منه غير مأذون له في تناوله فهو حرام حكما، وجميع ذلك رزق. وقد خرج بعض النبلاء من قوله تعالى:" كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ "[4] فقال: ذكر المغفرة يشير إلى أن الرزق قد يكون فيه حرام..[5]

---

[1] – سورة فاطر آية : ٣

[2] – سورة الذاريات ، آية : ٥٨

[3] – سورة هود ، آية : ٦

[4] . سورة سبأ آية : ١٥

[5] – الجامع لأحكام القرآن للإمام القرطبي ١٧٨/١

الموضوع الثالث

قصة ضيف إبراهيم عليه السلام

قال تعالى : (هَلْ أَتاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْراهِيمَ الْمُكْرَمِينَ ، إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقالُوا سَلاماً قالَ سَلامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ ، فَراغَ إِلى أَهْلِهِ فَجاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ، فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قالَ أَلا تَأْكُلُونَ ، فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قالُوا لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلامٍ عَلِيمٍ)[١]

مناسبة الآيات لما قبلها

بعد أن تناولت الآيات السابقة شديد عناد المشركين ، وعظيم ضلالهم ، حتى مع كثرة هذه الأقسام التي أقسم الله بها ، في سوق الأخبار إليهم، جاءت هذه الآيات على سبيل التهديد للمشركين المعاندين بأنهم سيلقون مصيرا كمصير من سبقهم من المكذبين كقوم لوط وغيرهم.

قال الشيخ الطاهر بن عاشور:

انتقال من الإنذار والموعظة والاستدلال إلى الاعتبار بأحوال الأمم الماضية المماثلة للمخاطبين المشركين في الكفر وتكذيب الرسل[٢].

---

[١] – سورة الذاريات الآيات من ٢٤ : ٢٨

[٢] – التحرير والتنوير ٢٦/ ٣٥٦

بيان معاني المفردات

١ – (هَلْ أَتاكَ) ، المراد بالاستفهام في مثل هذا التفخيم والتهويل[١]

٢– (ضَيْفِ) ، الضيف في الأصل مصدر بمعنى الميل، يقال ضفت الرجل ضيفا وضيافة ، وتضيفته: نزلت به ضيفا وملت إليه، وقيل: نزلت به ، ويطلق على الواحد والجماعة[٢]. والمراد هنا: جماعة الملائكة الذين قدموا على إبراهيم– عليه السلام– وعلى رأسهم جبريل عليه السلام.

٣– قوله: (إِذْ دَخَلُواْ) «إذ» منصوب بما في «ضيف» من معنى الفعل؛ كأنه قيل: الذي أضافهم في وقت دخولهم عليه. أو بالمكَرمين، إن فسر بإكرام إبراهيم لهم ، أو أنه منصوب بإضمار اذكر، ولا يجوز نصبه ب «أتاك» لاختلاف الزمانين[٣].

٤– (فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ) ، أي: نسلم عليك سلاما، قال إبراهيم: سلام أي: عليكم سلام. عدل به إلى الرفع بالابتداء للقصد إلى الثبوت والدوام حتى تكون تحيته عليه السلام أحسن من تحيتهم، وهذا أيضا من إكرامه.

٥ – (قَوْمٌ مُنْكَرُونَ) ، قوم خبر مبتدأ محذوف تقديره : أنتم قوم منكرون، لا نعرفكم، فعرفوني من أنتم.

٦ – (فَرَاغَ) الروغان: الذهاب بسرعة، وقيل: في خفية.

---

[١] – التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي ٢/ ٣٠٨ ، دار الأرقم بن أبي الأرقم – بيروت الطبعة الأولى ١٤١٦ هـ

[٢] – لسان العرب لابن منظور ٩/ ٢٠٩ وما بعدها ، بتصرف.

[٣] – الدر المصون في علوم الكتاب المكنون للسمين الحلبي ١٠/ ٥٠. بتصرف.

٧ – (فَجَاءَ): عطف على «فراغ» ، وتسببه عنه واضح. والهمزة في :(أَلَا تَأْكُلُونَ) للإنكار عليهم في عدم أكلهم، أو للعرض أو للتحضيض[١].

٨ – قوله: (فِي صَرَّةٍ) : الصرة، وهي الضجة، قال الزجاج: الصرة أشد الصياح تكون في الطائر والإنسان وغيرهما ، والصرة: – بالكسر: أشد الصياح، وبالفتح: الشدة من الكرب والحزن. [٢] ، وتعرب حالا من الفاعل أي: كائنة في صرة. قال الآلوسي : والجار والمجرور في موضع الحال ، أو المفعول به إن فسر (أقبلت) ب أخذت. قيل: إن (فِي) عليه زائدة ، والتقدير : أخذت صيحة، وقيل: بل الجار والمجرور في موضع الخبر ، لأن الفعل حينئذ من أفعال المقاربة[٣]

٩ – قوله: (عَجُوزٌ) : خبر مبتدأ مضمر أي: أنا عجوز عقيم فكيف ألد؟ تفسرها الآية الأخرى.

١٠ – (خَطْبُكُمْ) ، الخطب: الأمر الهام، والشأن الخطير، وجمعه خطوب. قال ابن سيده : الخطب: الشأن أو الأمر، صغر أو عظم. وجمعه: خطوب[٤].

---

[١] – – الدر المصون في علوم الكتاب المكنون للسمين الحلبي ٥١/١٠. بتصرف.

[٢] – لسان العرب لابن منظور حرف الراء فصل الصاد المهملة ٤/ ٤٥٠. المحكم والمحيط الأعظم لا بن سيده حرف الصاد – الصاد والراء ص ر ر٨/ ٢٦٣ دار الكتب العلمية – بيروت الطبعة الأولى، ١٤٢١ هـ – ٢٠٠٠ م تاج العروس من جواهر القاموس للزَّبيدي فصل الصاد المهملة مع الراء مادة صرر ١٢/ ٣٠١

[٣] – روح المعاني للآلوسي ١٤/١٤. بتصرف.

[٤] – المحكم والمحيط الأعظم لابن سيده ٥/ ١٢٢ ، وتاج العروس للزَّبيدي فصل الخاء – خطب ٢/ ٣٧٠

١١ – قوله: (مُسَوَّمَةً) : أي معلمة من السومة وهى العلامة ، منصوب على النعت لحجارة. أو على أنه حال من الضمير المستكن في الجار قبله. الثالث: أنه حال من «حجارة» وحسن ذلك كون النكرة وصفت بالجار بعدها. وأل– عند الإمام للعهد أي لهؤلاء المسرفين، ووضع الظاهر. موضع الضمير ذما لهم بالإسراف بعد ذمهم بالإجرام، وإشارة إلى علة الحكم[١]

١٢ – قوله: (عِنْدَ رَبِّكَ) ظرف ل «مسومة» أي: معلمة عنده[٢].

١٣ – الفاء في قوله : (فَأَخْرَجْنَا) فصيحة مفصحة عن جمل قد حذفت ثقة بذكرها في موضع آخر ، كأنه قيل: فقاموا منه ، وجاؤوا لوطا فجرى بينهم وبينه ما جرى ، فباشروا ما أمروا به ، فأخرجنا بقولنا : (فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ)[٣] إلخ (مَنْ كانَ فِيها) ، أي في قرى قوم لوط ، وإضمارها بغير ذكر لشهرتها[٤].

١٤ – قوله: (فِيهَا آيَةً) : يجوز أن يعود الضمير على القرية أي: تركنا في القرية علامة كالحجارة أو الماء المنتن، ويجوز أن يعود على الإهلاكة المفهومة من السياق[٥].

---

[١] – روح المعاني للإمام الآلوسي ١٤/١٥

[٢] – – الدر المصون في علوم الكتاب المكنون للسمين الحلبي ١٠/ ٥١بتصرف.

[٣] – سورة الحجر آية : ٦٥

[٤] – روح المعاني للإمام الآلوسي ١٤/١٥

[٥] – الدر المصون في علوم الكتاب المكنون للسمين الحلبي ١٠/ ٥٠. بتصرف.

القراءات

١ – قوله : (إِبْراهِيمَ) ، قرأ بالألف ابن عامر بخلف عن ابن ذكوان[١]

٢ – قوله : (قَالَ سَلَامٌ) ، قرأ الأخوان بكسر السين وإسكان اللام، وغيرهما بفتح السين واللام وألف بعدها، ولا خلاف بينهم في سلم الذي قبله أنه بفتح السين واللام وألف بعدها[٢].

المعنى العام

هذه الآيات تحكي لنا هنا ما دار بين نبي الله إبراهيم– عليه السلام– وبين الملائكة الذين جاءوا لبشارته بابنه إسحاق، ولإخباره بإهلاك قوم لوط، وقد بدأت الآيات بذكر قصة سيدنا إبراهيم عليه السلام من بين ما ذكر من الأنبياء لأن العرب كانت تجله وتحترمه وتدعي أنها على دينه. ولكونه محل اتفاق بين مختلف أتباع الديانات من اليهودية والنصرانية والإسلام ، وأيضا هو أب الأنبياء ، ولكون النبي صلى الله عليه وسلم على ملته ، قال تعالى: (مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ)[٣] وفى ذكر هذه القصة بعد ما سبق من الحديث عن موقف الذين كفروا هو بمنزلة انتقال بالنبي صلى الله عليه وسلم من هذا الجو الخانق الذي كان يعيش فيه مع قومه، حيث التكذيب المحمل بعظيم السخرية ، والاستهزاء ، وشتى صنوف الأذى ،

---

[١] – اتحاف فضلاء البشر في القراءات الأربعة عشر لأحمد بن محمد الدمياطي ص : ٥١٦. دار الكتب العلمية – بيروت الطبعة ١٤٢٢ هـ – ٢٠٠١ م

[٢] – البدور الزاهرة في القراءات العشر لعبد الفتاح القاضي ص : ٤٢١

[٣] – سورة آل عمران آية : ٦٧لام

إلى جو آخر من التفاؤل بالنصر ، والشعور القوي بالرجاء والثقة فيما وعده الله به من النصر ، والتمكين لدينه رغم أنف الكفر المتغطرس أهله، وذلك ما تشير إليه القصة من البشارة لسيدنا إبراهيم عليه السلام وزوجه بالولد رغم فوات الأسباب من كبر سنه عليه السلام وكون زوجه عجوزا عقيما، وقد افتتحت هذه القصة بأسلوب الاستفهام (هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ) تشويقا لما سيذكر من هذه القصة ، وتفخيما لشأنها، وتنويها بمدى أهميتها ، وبأنه لا علم للنبي – صلى الله عليه وسلم – بها إلا عن طريق الوحي . يقول الشيخ ابن عجيبة رحمه الله : يقول الحق جل جلاله: هل أتاك حديث ضيف إبراهيم، استفتح بالاستفهام التشويقي، تفخيما لشأن الحديث، وتنبيها على أنه ليس مما علمه رسول الله – صلى الله عليه وسلم – بغير طريق الوحي.[1].

ويقول صاحب البحر المحيط :

هل أتاك: تقرير لتجتمع نفس المخاطب، كما تبدأ المرء إذا أردت أن تحدثه بعجيب، فتقرره هل سمع ذلك أم لا، فكأنك تقتضي أن يقول لا. ويستطعمك الحديث، وفيه تفخيم للحديث ، وتنبيه على أنه ليس من علم رسول الله صلى الله عليه وسلم، وإنما عرفه بالوحي،[2] وقيل إن هل هنا بمعنى قد. والمعنى: هل أتاك– أيها الرسول الكريم– حديث ضيف إبراهيم المكرمين عند الله تعالى ، وأطلق عليهم لفظ : ضيف ، لأنهم جاءوه على صورة بني آدم، وذلك في طريقهم إلى سيدنا لوط – عليه السلام – وقومه ،

[1] – البحر المديد في تفسير القرآن المجيد لابن عجيبة ٥/ ٤٧٤ طبعة ١٤١٩ هـ

[2] – البحر المحيط لأبي حيان ٩/ ٥٥٤، دار الفكر – بيروت طبعة: ١٤٢٠ هـ

وقد دخلوا عليه قائلين : سلاما، أي نسلم عليك سلاما، فأجابهم بأحسن من تحيتهم بما يدل على الثبات: سلام عليكم، إنكم قوم منكرون لا أعرفكم،

واستظهر بعض العلماء أن هذه مقالة[١] أسرها سيدنا إبراهيم – عليه السلام – في نفسه ، أو لمن كان معه من أتباعه وجلسائه من غير أن يشعرهم بذلك، لأن في خطاب الضيف بنحو ذلك إيحاشا له، ولأنه لو كان أراد ذلك لكشفوا له أحوالهم، ولم يتصد لمقدمات الضيافة.[٢] ثم خرج سيدنا إبراهيم – عليه السلام – خفية من ضيوفه ، وفي سرعة أحضر لهم أفضل ماله ، حيث أتى بعجل سمين قد شوي على الحجارة المحماة ، ومن آداب المضيف أن يبادر الضيف: بالقرى، وأن يخفى أمره من غير أن يشعر به الضيف، حذرا من أن يكفه، وكان عامة مال سيدنا إبراهيم عليه السلام – البقر ، فقال بعد دعوتهم للأكل بتلطف وأدب: (أَلا تَأْكُلُونَ). فلما لم يأكلوا لكونهم ملائكة لا يأكلون ولا يشربون ، أحس في نفسه خيفة ، ظنا منه أن امتناعهم إنما كان لشر يريدونه، فإن أكل الضيف أمنة ، ودليل على سروره وانشراح صدره، وللطعام حرمة، وفى الإعراض عنه وحشة موجبة لسوء الظن، وقد جاء في سورة هود: « فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ»[٣] . ثم ذكر القرآن أنهم طمأنوه حينئذ فقال: (قَالُوا لَا تَخَفْ) منا إنا

---

[١] – يقصد قوله :(قَوْمٌ مُنْكَرُونَ)

[٢] – تفسير المراغي لفضيلة الشيخ /أحمد بن مصطفى المراغي ٢٦ / ١٨٣ ، طبعة مصطفى البابي الحلبي الطبعة الأولى، ١٣٦٥ هـ – ١٩٤٦ م

[٣] – سورة هود ، آية : ٧٠

رسل ربك، وجاء في الآية الأخرى: « قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ» . (وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ) أي فبشروه بإسحاق بن سارة كما جاء في سورة هود: «فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ»[1] ، وجاءت البشارة بالولد الذكر ، لما في ذلك من سرور للنفس، وفرح للصدر ، وبه تقر العين، ووصفه بالعلم لأنه الصفة التي يمتاز بها الإنسان الكامل، لا الصورة الجميلة ، ولا القوة ، ولا نحوهما. ثم أخبر عما حدث من امرأته حينئذ فقال : (فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ)[2] أي فأقبلت امرأته سارة حين سمعت بشارتهم وقد كانت في ناحية من البيت تنظر إليهم ، وهى تصرخ صرخة عظيمة ، وضربت بيديها على جبينها، وقالت: أنا عجوز عقيم ، فكيف ألد؟

يقول الإمام الرازي رحمه الله تعالى :

وقوله تعالى: (فِي صَرَّةٍ) ، أي : صيحة ، كما جرت عادة النساء حين يسمعن شيئا من أحوالهن ، يصحن صيحة معتادة لهن عند الاستحياء ، أو التعجب ، ويحتمل أن يقال : تلك الصيحة كانت بقولها: يا ويلتا، تدل عليه الآية التي في سورة هود ، وصك الوجه أيضا من عادتهن، واستبعدت ذلك لوصفين :

أحدهما: كبر السن .

الثاني: العقم ، لأنها كانت لا تلد في صغر سنها ، وعنفوان شبابها ، ثم عجزت ، وأيست ، فاستبعدت ، فكأنها قالت : يا ليتكم دعوتم دعاء قريبا

---

[1] – سورة هود آية : ٧١

[2] – سورة الذاريات ، آية : ٢٩

من الإجابة ، ظنا منها أن ذلك منهم ، كما يصدر من الضيف على سبيل الأخبار من الأدعية كقول الداعي : الله يعطيك مالا ، ويرزقك ولدا، فقالوا هذا منا ليس بدعاء.[١] وجاء في الآية الأخرى: «قَالَتْ يَا وَيْلَتَا أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا»[٢] فأجابوها عما قالت: (قَالُوا كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ)[٣] ، أي قالوا لها: مثل الذي أخبرناك به قال ربك، فنحن نخبرك عن الله، والله قادر على ما تستبعدين، وهو الحكيم في أفعاله، العليم الذي لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء. قال الشيخ ابن عجيبة :

قالوا كذلك أي: مثل ما قلنا وأخبرناك به قال ربك أي: إنما نخبرك عن الله تعالى، والله قادر على ما يستعبد، إنه هو الحكيم في فعله، العليم فلا يخفى عليه شيء، فيكون قوله حقا، وفعله متقنا لا محالة.[٤]

والخلاصة– إنها استبعدت الولادة لسببين: كبر السن والعقم، وقد كانت لا تلد في عنفوان شبابها والآن قد عجزت وأيست، فأجدر بها الآن ألا تلد، فكأنها قالت: ليتكم دعوتم دعاء قريبا من الإجابة، ظنا منها أن ذلك منهم كما يصدر من الضيف من الدعوات الطيبات كما يقول الداعي: أعطاك الله مالا، ورزقك ولدا، فردوا عليها بأن هذا ليس منا بدعاء، وإنما ذلك قول الله تعالى.

---

[١] – مفاتيح الغيب للرازي ، ٢٨/ ١٧٧

[٢] – سورة هود آية : ٧٢

[٣] – سورة الذاريات آية : ٣٠

[٤] – البحر المديد في علوم الكتاب المجيد لابن عجيبة ٥/٤٧٥

وبعد انتهاء موقف الملائكة مع سيدنا إبراهيم عليه السلام على النحو المذكور من عدم تناول الضيف الكرام من طعام سيدنا إبراهيم عليه السلام وما ترتب على ذلك من فزع النبي الكريم إبراهيم عليه السلام – وكشف الملائكة عن حقيقتهم ثم بشروه بغلام يبلغ حدا يكن فيه ذا أدب وعلم وموقف السيدة سارة من ذلك توجه سيدنا إبراهيم عليه السلام إلى الملائكة مستفهما عن سبب مجيئهم قائلا لهم : (قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ ، قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ ، لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ طِينٍ ، مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ، فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ، فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ، وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ)[1]

(قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ) ، أي قال سيدنا إبراهيم عليه السلام لهؤلاء الملائكة: بعد أن هدأ من روعه بسبب ما كان من الملائكة، واستفاق من فرح البشرى ، وسكنت امرأته بعد هذا الاندهاش من هذا الأمر العجيب الذي جاءت به الملائكة من أن يكون لإبراهيم عليه السلام ولد منها بعد هذه الشيخوخة والعقم! ..

وبعد كل هذا يتجه إبراهيم – عليه السلام – إلى ضيفه من الملائكة يسألهم عما جاء بهم قائلا لهم : ما شأنكم؟ وما الذي جاء بكم سوى البشارة؟ وفيم أرسلتم؟ وذلك لأنهم لم يأتوا على صورة غريبة، تبعث على الرعب الذي يدل عليه إهلاكهم قوم لوط عليه السلام – وإنما جاءوا في صورة الذي يحمل البشرى ، ذاكم الذي يقدم بين يديه دلائل هذه البشرى

[1] – سورة الذاريات الآيات من ٣١ : ٣٧

وأماراتها، بل إن ريح البشرى نفسها لتسبق الحامل لها فيجد لها المحمولة إليه وقعا طيبا في نفسه، وشعورا مسعدا في كيانه، قبل أن تبلغه.. تماما كما وجد نبي الله يعقوب عليه السلام من ريح سيدنا يوسف – عليه السلام – ، قبل أن يأتيه البشير بقميصه. ومن هنا كان سؤال إبراهيم الملائكة عما وراءهم، من أمر خطير، وماذا يحملون من شئون تتصل به من قريب أو بعيد؟.

وفى نداء سيدنا إبراهيم – عليه السلام – لهم باسم المرسلين، لا باسم الملائكة، إشارة إلى أنهم ليسوا مجرد ملائكة عابرين به، بل إنهم محملون برسالة من رب العالمين ، فهو يسألهم عن محتوى ما أرسلوا به إليه[١]. فأجابوه عما سأل: (قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ ، لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ طِينٍ ، مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ)[٢] أي قالوا له: يا نبي الله ، إنا رسل ربك قد أرسلنا الله إلى قوم لوط بالعذاب لإجرامهم، وسنلقي عليهم حجارة من طين مطبوخ كالآجر وهي في الصلابة كالحجارة، وفيها علامات أعدت عند ربك سبحانه لهلاك هؤلاء المسرفين. قال الحافظ ابن كثير :

مسومة : أي معلمة عند ربك للمسرفين أي مكتتبة عنده بأسمائهم كل حجر عليه اسم صاحبه[٣].وقال العلامة الآلوسي :

---

[١] – : التفسير القرآني للقرآن لفضيلة الشيخ عبد الكريم الخطيب ٥٣٢/١٤ دار الفكر العربي – القاهرة

[٢] – سورة الذاريات أية : ٣٢ : ٣٦

[٣] – تفسير ابن كثير ٣٩٣/٧

(قالَ) : أي إبراهيم – عليه السلام – لما علم أنهم ملائكة أرسلوا لأمر : (فَما خَطْبُكُمْ)؟ أي شأنكم الخطير الذي لأجله أرسلتم سوى البشارة؟ (أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ قالُوا إِنَّا أُرْسِلْنا إِلى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ) ، يعنون قوم لوط – عليه السلام – (لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ)، أي ، بعد قلب قراهم عاليها سافلها حسبما فصل في سائر السور الكريمة (حِجارَةً مِنْ طِينٍ) أي طين متحجر ، وهو السجيل ، وفي تقييد كونها من طين رفع توهم كونها بردا ، فإن بعض الناس يسمي البرد : حجارة ، (مُسَوَّمَةً) : معلمة من السومة ، وهي العلامة على كل واحدة منها اسم من يهلك بها[1] وحينما جاء موعد هلاكهم ميز الله سبحانه المؤمنين عن هؤلاء المجرمين ، وأبعدهم عنهم على ما جاء في قوله سبحانه: (فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ، فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ)[2] . أي : وبعد أن ذهبت الملائكة إلى قوم لوط ودار حوار بينه وبينهم على ما جاء في سورة هود ، والحجر ، والقمر، والعنكبوت أخرجوا من كان في تلك القرى من المؤمنين تخليصا لهم من العذاب، ولم يجدوا فيها سوى بيت واحد أسلم وجهه لله ظاهرا وباطنا، وانقاد لأوامره واجتنب نواهيه، وهو بيت لوط ابن أخي إبراهيم عليه السلام. والإيمان : تصديق القلب، والإسلام : الانقياد بالظاهر، فكل مؤمن مسلم ، وليس كل مسلم مؤمنا. فسماهم في الآية الأولى مؤمنين، لأنه ما من مؤمن إلا وهو مسلم. وقوله: (قالَتِ الْأَعْرابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ

---

[1] – روح المعاني للإمام الآلوسي ١٤/١٥

[2] – نفس السورة آية : ٣٥ ،٣٦

تُؤْمِنُوا)، يدل على الفرق بين الإيمان والإسلام وهو مقتضى حديث جبريل عليه السلام في صحيح مسلم[١]

قال أبو مسلم الأصفهاني: الإسلام : الاستسلام لأمر الله ، والانقياد لحكمه، فكل مؤمن مسلم، ومن ذلك قوله تعالى: «قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا» . وقد أوضح الحديث الشريف الفرق بينهما، فجاء في الصحيحين وغيرهما من طرق عدة «أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل عن الإسلام فقال: أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسوله، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتحج البيت، وتصوم رمضان. وسئل عن الإيمان؟ فقال: أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله

[١] – يشير إلى حديث صحيح أخرجه الإمام مسلم عن عمر بن الخطاب قال: بينما نحن عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم، إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب، شديد سواد الشعر، لا يرى عليه أثر السفر، ولا يعرفه منا أحد، حتى جلس إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فأسند ركبتيه إلى ركبتيه، ووضع كفيه على فخذيه، وقال: يا محمد أخبرني عن الإسلام، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله صلى الله عليه وسلم، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلا»، قال: صدقت، قال: فعجبنا له يسأله، ويصدقه، قال: فأخبرني عن الإيمان، قال: «أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره»، قال: صدقت، ..الحديث أخرجه الإمام مسلم في صحيحه في كتاب الإيمان – باب معرفة الإيمان، والإسلام، والقدر وعلامة الساعة حديث رقم ٨/١

وبالقدر خيره وشره»[1] .(وتركنا فيها آية للذين يخافون العذاب الأليم) أي وجعلناها عبرة بما أنزلنا بها من العذاب والنكال وحجارة السجيل، وخسف الأرض بهم حتى صارت قريتهم بحيرة منتنة خبيثة وهي بحيرة طبرية، لتكون ذكرى لمن يخشى الله ويخاف عذابه. وفي الآية إيماء إلى أن الكفر متى غلب، والفسق إذا انتشر، لا تنفع معه عبادة المؤمنين، أما إذا كان أكثر الخلق على الطريقة المستقيمة وفيهم شرذمة يسيرة يسرقون ويفجرون، فإن الله لا يأخذ الكثرة الصالحة بذنب العدد القليل من الفاجرين.

قال الإمام الرازي :قوله : (فَأَخْرَجْنا مَنْ كانَ فِيها مِنَ الْمُؤْمِنِينَ)[2] ، فيه فائدتان:

إحداهما: بيان القدرة والاختيار فإن من يقول بالاتفاق يقول يصيب البر والفاجر فلما ميز الله المجرم عن المحسن دل على الاختيار.

ثانيها: بيان أنه ببركة المحسن ينجو المسيء فإن القرية ما دام فيها المؤمن لم تهلك، والضمير عائد إلى قرية معلومة وإن لم تكن مذكورة وقوله : (فَما وَجَدْنا فِيها غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ)[3] ، فيه إشارة إلى أن الكفر إذا غلب والفسق إذا فشا لا تنفع معه عبادة المؤمنين، بخلاف ما

---

[1] – أخرجه البخاري في كتاب تفسير القرآن – باب قوله: {إن الله عنده علم الساعة} حديث رقم : ٤٧٧٧. وأخرجه مسلم في كتاب الإيمان١ – باب معرفة الإيمان، والإسلام، والقدر وعلامة الساعة : ١ – (٨)

[2] سورة الذاريات آية : ٣٥

[3] – نفس السورة آية : ٣٦

لو كان أكثر الخلق على الطريقة المستقيمة ، وفيهم شرذمة يسيرة يسرقون ويزنون ، وقيل في مثاله : إن العالم كبدن ، ووجود الصالحين كالأغذية الباردة والحارة ، والكفار والفساق كالسموم الواردة عليه الضارة، ثم إن البدن إن خلا عن المنافع ، وفيه المضار هلك ، وإن خلا عن المضار ، وفيه المنافع طاب عيشه ونما، وإن وجد فيه كلاهما ، فالحكم للغالب ، فكذلك البلاد والعباد والدلالة على أن المسلم بمعنى المؤمن ظاهرة، والحق أن المسلم أعم من المؤمن وإطلاق العام على الخاص لا مانع منه، فإذا سمي المؤمن مسلما لا يدل على اتحاد مفهوميهما، فكأنه تعالى : قال أخرجنا المؤمنين فما وجدنا الأعم منهم إلا بيتا من المسلمين، ويلزم من هذا أن لا يكون هناك غيرهم من المؤمنين[١]

الموضوع الرابع

ومن قصص الأنبياء

قال تعالى : (وَفِي مُوسَى إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَى فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ ، فَتَوَلَّى بِرُكْنِهِ وَقَالَ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ، فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ ، وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ ، مَا تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ ، وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّى حِينٍ ، فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنْظُرُونَ ، فَمَا اسْتَطَاعُوا مِنْ قِيَامٍ

[١] – مفاتيح الغيب للرازي ١٨١/٢٨

وَمَا كَانُوا مُنْتَصِرِينَ ، وَقَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ)[1]
الآيات من ٣٨ : ٤٦

مناسبة الآيات لما قبلها

بعد أن ذكر ما كان من قوم لوط – عليه السلام – من الفسوق والفجور، وما ترتب على ذلك من إهلاكهم على نحو ما قد سبق تأتي هذه القصص عطفا على ما سبق من القصص على سبيل التسلية لسيدنا رسول الله – صلى الله عليه وسلم – والمؤمنين على ما يلاقون من أعداء الله تعالى فكانه يقال لرسول الله – صلى الله عليه وسلم – لست الوحيد الذي كذبه قومه ، فلقد كذبت الرسل من قبلك ، واعلم يا رسول الله أنت ومن معك أن الله قد نصر رسله والمؤمنين ، وأهلك المكذبين، فأبشروا بالنصر.

معاني المفردات

١ – (وَفِي مُوسى) عطف على (وَفِي الْأَرْضِ) ، أو على قوله: (وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً) على معنى: وجعلنا في موسى آية[2].

٢ – (إِذْ أَرْسَلْنَاهُ) : الظرف منصوب بآيات، أو: بمحذوف، أي: كائنة وقت إرسالنا، أو بتركنا[3].

---

[1] – سورة الذاريات من الآية :٣٨: ٤٦

[2] البحر المديد في تفسير القرآن المجيد لابن عجيبة ٥/ ٤٧٧ ، والتسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي ٢/ ٣٠٩

[3] – المرجع السابق

٣- (بِرُكْنِهِ) ، الركن: ما يركن إليه الإنسان من عز وجند . قال الخليل : الرُّكْنُ: ناحية قوية من جبل ، أو دار، والجمع: أركان . ورُكْنُ الرجل: قومه وعدده الذين يعتز بهم. قال عز اسمه حكاية عن لوط: (أَوْ آوِي إِلى رُكْنٍ شَدِيدٍ)[١] . وأركان الجمل : قواه في أعضائه، ويقال: قوائمه. ورجل رَكينٌ: أي: شديد، ذو أركان[٢].

وقوله: : (فَتَوَلَّى بِرُكْنِهِ) تمثيل لهيئة رفضه دعوة سيدنا موسى عليه السلام بهيئة المنصرف عن شخص. وبإيراد قوله: (بِرُكْنِهِ) تم التمثيل ولولاه لكان قوله: فتولى مجرد استعارة. والباء للملابسة، أي ملابسا ركنه كما في قوله: (أَعْرَضَ وَنَأى بِجانِبِهِ)[٣]

٤- (فَنَبَذْناهُمْ) النبذ: طرحك الشيء من يدك أمامك أو وراءك بدون اكتراث أو اهتمام به، يقال : نبذت الشيء أنبذه نبذا إذا ألقيته من يدك، ونبذته، شدد للكثرة. ونبذت الشيء أيضا إذا رميته وأبعدته؛ . وكل طرح: نبذ[٤] ، أي طرحناهم في اليم وهو مليم ، أي :أتى بما يلام عليه من الكفر والطغيان. وجملة، وهو مليم، حال من المفعول في قوله : (أَخَذْناهُ). أي: فأخذنا فرعون هو وجنوده الذين ارتكن إليهم أخذ عزيز مقتدر، فألقينا بهم جميعا في البحر بدون اعتداد بهم، بعد أن أتى فرعون بما يلام عليه من الكفر والطغيان.

---

[١] – سورة هود الآية : ٨٠.

[٢] – العين للخليل بن أحمد باب الكاف والراء والنون – ركن ٥/ ٣٥٤ ، دار ومكتبة الهلال

[٣] – سورة الإسراء آية : ٨٣

[٤] – لسان العرب لابن منظور باب الذال – فصل النون ٣/٥١١

٥- (الرِّيحَ الْعَقِيمَ) الريح العقيم: التي لا تلقح شجرا ، ولا تنشىء سحابا ولا مطرا. وقيل: العقل عقلان: فأما عقل صاحب الدنيا فعقيم، وأما عقل صاحب الآخرة فمثمر ، والملك عقيم ، أي لا ينفع فيه النسب ، لأن الابن يقتل على الملك أباه، والأب ابنه. والدنيا عقيم أي لا ترد على صاحبها خيرا. ويقال: ناقة معقومة أي لا تقبل رحمها الولد[١] ،

٦ – جملة : (مَا تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلاَّ جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ) صفة ثانية، أو حال، فهو ارتقاء في مضرة هذا الريح فإنه لا ينفع وأنه يضر أضرارا عظيمة.

٧ – وصيغ تذر: بصيغة المضارع لاستحضار الحالة العجيبة. وشيء : في معنى المفعول ل تذر ، فإن (من) لتأكيد النفي ، والنكرة المجرورة ب (من) هذه نص في نفي الجنس ، ولذلك كانت عامة ، إلا أن هذا العموم مخصص بدليل العقل ، لأن الريح إنما تبلي الأشياء التي تمر عليها إذا كان شأنها أن يتطرق إليها البلى ، فإن الريح لا تبلي الجبال ، ولا البحار، ولا الأودية ، وهي تمر عليها ، وإنما تبلي الديار ، والأشجار ، والناس ، والبهائم[٢]

---

[١] – كتاب العين للخليل بن أحمد باب العين والقاف والميم ١٨٥/١ دار ومكتبة الهلال . تهذيب اللغة للأزهري ١/ ١٨٩بتصرف .دار إحياء التراث العربي – بيروت الطبعة الأولى ٢٠٠١م

[٢] – تفسير التحرير والتنوير للشيخ الطاهر بن عاشور ١١/٢٧

٨- (كَالرَّمِيمِ) .الرميم : البالي من كل شيء كالفتات من الخشب والتبن[١]، وجملة إلا جعلته كالرميم في موضع المفعول الثاني ل «تذر» كأنه قيل: ما تترك من شيء إلا مجعولا نحو: ما تركت زيدا إلا عالما[٢].

٩- (وَهُمْ يَنظُرُونَ) جملة حالية من المفعول. و «ينظرون» قيل: من النظر. وقيل: من الانتظار أي: ينتظرون ما وُعِدوه من العذاب[٣].

١٠- (وَقَوْمَ نُوحٍ) أي: وأهلكنا قوم نوح لأن ما قبله يدل عليه، أو: واذكر قوم نوح، ومَن قرأ بالجر فعطف على ثمود، أي: وفي قوم نوح آية

القراءات

١ – قوله : (الصَّاعِقَةُ) قرأ الكسائي الصعقة بإسكان العين من غير ألف، وقرأ الباقون بكسر العين وألف قبلها[٤].

٢ – قوله : (وَقَوْمَ نُوحٍ) ، قرأ أبو عمرو وحمزة والكسائي وخلف بخفض الميم، وقرأ الباقون بنصبها[٥].

---

١ – المعجم الوسيط لمجمع اللغة العربية ١/ ٣٧٤، بالقاهرة دار الدعوة. والغريبين في القرآن والحديث للهروي باب الراء مع الميم – رمم ٣/ ٧٨١، مكتبة نزار مصطفى الباز – المملكة العربية السعودية الطبعة الأولى، ١٤١٩ هـ – ١٩٩٩ م

٢ – الدر المصون في علوم الكتاب المكنون للسمين الحلبي ٥٦/١٠

٣ – الدر المصون في علوم الكتاب المكنون للسمين الحلبي ٥٦/١٠

٤ – النشر في القراءات العشر لابن الجزري،٢ / ٣٧٧. تحقيق علي محمد الضباع المطبعة التجارية الكبرى تصوير دار الكتاب العلمية

٥ – نفس المرجع والصفحة

المعنى العام

(وَفِي مُوسَى إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَى فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ ، فَتَوَلَّى بِرُكْنِهِ وَقَالَ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ) .

بداية أقول : جاءت قصة نبي الله موسى عليه السلام مع فرعون عقب قصة قوم لوط لما بينهما من تناسب في أن العذاب الذي عذب به الأمتان عذاب أرضي ، إذ عذب قوم لوط بالحجارة التي هي من طين، وعذب قوم فرعون بالغرق في البحر، ثم ذكر عاد وثمود وكان عذابهما سماويا إذ عذبت عاد بالريح وثمود بالصاعقة[1]. ومعنى الآيات: وتركنا في قصة موسى عليه السلام آية وعبرة لقوم يعقلون، وذلك حين أرسلناه إلى الطاغية فرعون الجبار بشيرا ونذيرا، بمعجزات واضحات ، وحجج دامغات ، وآيات بينات، وهي اليد البيضاء ، والعصا ، والطوفان ، وغيرها من الآيات التسعة ، فلم يستجب ، بل كذب وتولى فأعرض ونأى، معتزا بجنده وقوته وجبروته، وقال حينا تحقيرا لشأن نبي الله موسى – عليه السلام – : «قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ»[2] وقال حينا آخر: « إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ»[3] . كل هذا بقصد صرف الناس عن حقيقة ما جاء به سيدنا موسى عليه السلام – وحرصا منه على هيبته المزعومة أمام قومه ، وخوفا على ملكه أن يزول ، وكأنه تذكر النبوءة التي كانت في القديم ، والتي فسرها له من فسرها بزوال ملكه على يد طفل سيولد في بني

---

[1] – التحرير والتنوير للشيخ الطاهر بن عاشور ١٠/٢٧

[2] – سورة الشعراء آية : ٢٧

[3] – نفس السورة آية : ٣٤

إسرائيل ، فازداد الخوف عنده على دولته وملكه، واستبد به الخوف ، وعظمت عنده الحيرة ،(فَتَوَلَّى بِرُكْنِهِ وَقَالَ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ) فهذا إشارة إلى أن هذا القول لم يكن من فرعون عن علم، وإنما هو اتهام زائف يردده من غير حساب أو تقدير ، فهو متردد في الحكم الذي يحكم به على نبي الله موسى عليه السلام ولكن لا بد من أن يصدر حكما، وبقول قولا ، وهذا شأن أهل الضلال، حين يقهرهم الحق، وتسقط من بين أيديهم الحجة على دفعه

وهكذا ، ظل الرجل يبذل كل ما وسعه وطاقته للقضاء على دعوة نبي الله موسى عليه السلام من خلال التقليل والتحقير منه عليه السلام حينا ، واتهامه بالسحر والجنون حينا آخر ، وأخرى باستدعاء السحرة وتحفيزهم على غلبة نبي الله موسى أمام الناس أجمعين ، وفي النهاية باءت كل هذه المحاولات بالفشل ، ثم خرج نبي الله موسى ببني إسرائيل ليلا كما أوحي إليه ، وانتبه فرعون لهذا فملكه من الغضب أعظمه ، واستعدى عليهم الناس ، لافتا نظرهم إلى قلة ، وضعف ، وحقارة بني إسرائيل عنده ، واستجاب قومه لندائه وخرجوا باحثين عنهم حتى أدركوهم مشرق الشمس قبالة ساحل البحر ، وكلهم ثقة في عددهم وعدتهم ، وفي المقابل عندما رآهم بنو إسرائيل أصابهم الرعب العظيم ، والخوف الشديد ، لائمين نبي الله موسى عليه السلام قائلين له : (إِنَّا لَمُدْرَكُونَ)[١] . فيرد عليهم واثقا في نصر الله قائلا : (كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ)[٢] ، ويأتي

[١] – سورة الشعراء آية : ٦١

[٢] – نفس السورة آية : ٦٢

الرد الإلهي على أسرع ما يكون يقول الله تعالى : (فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ)[1] ، وهنا حاول فرعون أن يدرك بني إسرائيل ، وغره بقاء البحر واقفا ، والممر آمنا ، وهم نبي الله موسى – عليه السلام – أن يضرب البحر ليلتئم ، فأمره الله بتركه ، ليزداد فرعون طغيانا وتماديا ، وينزل البحر ليأتي أمر الله في فرعون وجنده :(فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ)[2] . أي فأغرقنا فرعون وجنوده في البحر وهو آت بما يلام عليه من الكفر والطغيان. وفى هذا إشارة إلى عظيم القدرة الإلهية في الانتقام من الجبابرة مع بالغ إذلالهم وسوء عاقبتهم، جزاء عتوهم واستكبارهم وعصيانهم أمر خالقهم. فعلى العاقل أن يجتنب مثل ما فعل فرعون وجنده ، حتى لا يحل به من العذاب مثل ما قد نزل بفرعون وجنده ، أما الذين لا يصدقون بالبعث والجزاء فلا يتعظون بذلك ، لأنهم لا يؤمنون بالسنن الإلهية ولا يتدبرون في دعوة أهل الحق ، فيوشك أن يحل بهم من مثل ما حل بفرعون وقومه، لأن ما جاز على المثل يجوز على المماثل، يقول الإمام الرازي رحمه الله:

والمعنى: أن في قصة موسى وفرعون آية للذين يخافون العذاب الأليم ، فيجتنبون مثل أسباب ما حل بفرعون وقومه من العذاب ، وهي الأسباب التي ظهرت في مكابرة فرعون عن تصديق الرسول الذي أرسل إليه ، وأن الذين لا يخافون العذاب لا يؤمنون بالبعث والجزاء لا يتعظون بذلك ،

---

[1] – نفس السورة آية : ٦٣

[2] – سورة الذاريات آية : ٤٠

لأنهم لا يصدقون بالنواميس الإلهية ، ولا يتدبرون في دعوة أهل الحق ، فهم لا يزالون معرضين ساخرين عن دعوة رسولهم متكبرين عليه، مكابرين في دلائل صدقه، فيوشك أن يحل بهم من مثل ما حل بفرعون وقومه، لأن ما جاز على المثل يجوز على المماثل، وقد كان المسلمون يقولون: إن أبا جهل فرعون هذه الأمة.[١]

ثم انتقل القرآن إلى العبرة بأمة من الأمم العربية وهم عاد وهم أشهر العرب البائدة. فقال: (وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ ، مَا تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ)[٢] أي وفى عاد آية لكل ذي لب، إذ أرسلنا عليهم ريحا صرصرا عاتية لم تبق منهم ديارا ولا نافخ نار، ولا تركت شيئا من الأبنية والعروش إلا جعلته كالشيء الهالك البالي. وذلك بسبب تكذيبهم نبي الله هودا – عليه السلام – وإشراكهم بالله ما لم ينزل به سلطانا ، ولقد بلغ الكفر والطغيان بهم حدا بعيدا حتى قالوا: (مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً)[٣] ، فليحذر أهل الإيمان أن يفعلوا مثلهم فيحل بهم من العذاب مثل ما قد حل بهم ، وأما الذين لا يخافون العذاب الأليم من أهل الشرك فهم مصرون على كفرهم كما أصرت عاد فيوشك أن يحل بهم من جنس ما حل بعاد. يقول ابن عجيبة رحمه الله: (وَفِي عادٍ إِذْ أَرْسَلْنا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ) ، وُصفت بالعقيم ، لأنها أهلكتهم ، وقطعت دابرهم، أو: لأنها لم تتضمن خيرا ما، من إنشاء مطر، أو إلقاح شجر، وهي الدَّبور، على

---

[١] – مفاتيح الغيب للرازي ٢٧/١٠ ، ١١

[٢] – نفس السورة آية : ٤١ ، ٤٢

[٣] – سورة فصلت آية : ١٥

المشهور، لقوله عليه السلام: «نُصرت بالصبا، وأُهْلكت عاد بالدّبور»[1] ، (ما تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ) أي : مرت عليه (إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ) وهو كل ما رمّ، أي: بلي وتفتت، من عظم، أو نبات، أو غير، والمعنى: ما تركت شيئا هبت عليه من أنفسهم وأموالهم إلا أهلكته.[2]

وبعدئذ ذكر شيئا من قصة ثمود ، فقال سبحانه:

(وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّى حِينٍ ، فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنْظُرُونَ). أي : وفيما حدث من ثمود مع نبي الله صالح – عليه السلام – عظة لمن تدبر وتفكر في آيات ربه، إذ قال لهم نبي الله صالح عليه السلام: (تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ)[3] ثم إنه بعد هذه المدة سوف ينزل بكم عذاب الله الذي لا طاقة لكم به، فما كان من القوم إلا إنهم كذبوه بشدة ، ولعب الغرور بقلوبهم وعقولهم ، وداعبهم الشيطان بخيله ورجله ، فتمسكوا بالكفر ، ورضوا به دينا ، وتشبثوا بالعناد منهجا وأسلوبا ، وردوا على نبيهم رد سوء ولم يبالوا بكونه رسولا من الله ، فأرسل الله عليهم الصيحة بما انطوت عليه من صعقة قوية أهلكتهم جميعا وهم ينظرون إليها ، بدون حيلة لهم ، أو حراك فيهم ، لأن الهول الناتج عن الصيحة فوق التصور والخيال ، وهذا العقاب جزاء وفاقا بما كسبت أيديهم من الخطايا والأوزار. (فَمَا اسْتَطَاعُوا

---

[1] – أخرجه الإمام البخاري في صحيحه في أبواب الاستسقاء – باب قول النبي صلى الله عليه وسلم نصرت بالصبا برقم ١٠٣٥ ، ومسلم في صحيحه في كتاب صلاة الاستسقاء – باب في ريح الصبا والدبور برقم ١٧ – (٩٠٠)

[2] – البحر المديد لابن عجيبة ٥/ ٤٧٨

[3] – سورة هود آية : ٦٥

مِنْ قِيامٍ وَما كانُوا مُنْتَصِرِينَ) أي : فما استطاعوا هربا ، ولم يجدوا نصيرا يدفع عنهم عذاب الله.

ثم ذكر لمحة من قصة قوم نوح – عليه السلام – فقال تعالى :

(وَقَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كانُوا قَوْماً فاسِقِينَ). أي : وأهلكنا قوم نوح بالطوفان قبل من سبق من قوم موسى – عليه السلام – ومن قبل عاد وثمود ، وذلك بسبب فسقهم وفجورهم وانتهاكهم حرمات الله

الموضوع الخامس

من دلائل القدرة

قال تعالى : (وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ، وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ ، وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ، فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ ، وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ ، كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ، أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ، فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَا أَنْتَ بِمَلُومٍ ، وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ) الآيات من ٤٧ : ٥٥

مناسبة الآيات لما قبلها

بعد أن تحدثت الآيات السابقة عن البعث وأنه كائن لا محالة ، وأن الله أهلك المكذبين به ، جاءت الآيات التي معنا لتبين جملة من دلائل قدرة الله تعالى الكونية على سبيل بيان أن القادر على ذلك قادر على البعث.

قال الإمام الرازي رحمه الله : هذا عود بعد التهديد إلى إقامة الدليل، وبناء السماء دليل على القدرة على خلق الأجسام ثانيا، كما قال تعالى: (أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ بِقادِرٍ عَلى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ)[1]

معاني المفردات

١ – قوله : (وَالسَّماءَ بَنَيْناها) هذا من باب الاشتغال، أي: بنينا السماء، بنيناها بِأَيْدٍ : بقوة، والأيد: القوة. قال ابن فارس: الهمزة والياء والدال أصل واحد، يدل على القوة والحفظ. يقال: أيده الله، أي: قواه الله. قال تعالى: {وَالسَّماءَ بَنَيْناها }[2]. فهذا معنى القوة. وأما الحفظ فالإياد كل حاجز للشيء يحفظه. ومنه:

دَفَعْنَاهُ عَنْ بَيْضٍ حِسَانٍ بِأَجْرَعٍ ... حَوَى حَوْلَهَا مِنْ تُرَبِهِ بِإِيَادِ[3]

٢– (وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ) لقادرين، من الوسع، وهو الطاقة، والمُوسِع: القويُّ على الإنفاق، أو: لموسعون بين السماء والأرض، أو: لموسعون الأرزاق على مَن نشاء

---

[1] – مفاتيح الغيب للرازي ٢٨ / ١٨٦، والآية من سورة يس : ٨١

[2] – سورة الذاريات آية : ٤٧

[3] – معجم مقاييس اللغة لابن فارس ١٦٣/١. شمس العلوم ودواء كلام العرب من الكلوم لنشوان الحميري اليمني ١/ ٣٦٩ في باب الهمزة والياء وما بعدهما مادة إياد طبعة دار الفكر المعاصر (بيروت – لبنان)، دار الفكر الطبعة الأولى ١٤٢٠ هـ – ١٩٩٩ م . و تاج العروس من جواهر القاموس لمرتضى الزَّبيدي باب الدال – فصل الياء ١/ ٣٤٠دار الفكر – بيروت الطبعة الأولى ١٤١٤ هـ

٣ – والفاء في قوله: (فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ) ... للتفريع على قوله– تعالى– لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ، أي: ما دام الأمر كما ذكرت لكم من وجود التذكر والاعتبار، ففروا إلى الله من معصيته إلى طاعته، ومن كفره إلى شكره، ومن السيئات إلى الحسنات[١].

٤– (أَتَواصَوْا بِهِ) ، الضمير المجرور يعود إلى القول المذكور، والاستفهام للتعجيب من أحوالهم. أي: أوصى السابقون اللاحقين أن يقولوا لكل رسول يأتيهم من ربهم. أنت– أيها الرسول– ساحر أو مجنون؟[٢]

٥– (بَلْ هُمْ قَوْمٌ طاغُونَ) إضراب عن تواصيهم إضراب إبطال، لأنهم لم يجمعهم زمان واحد حتى يوصى بعضهم بعضا، وإنما الذي جمعهم تشابه القلوب، والالتقاء على الكفر والفسوق والعصيان.

المعنى العام

بعد الحديث في الآيات السابقة عن قدرة الله عز وجل على نصرة أنبيائه ورسله ، وإهلاك المخالفين لهم جاءت هذه الآيات الكريمة لتحدثنا عن عجيب دلائل قدرته في الآفاق من خلال الإخبار بأنه سبحانه خلق السماء ببديع قدرته ، وعظيم سلطانه ، وهو سبحانه قادر على المزيد ، لا يمسه نصب ولا لغوب. ثم أخبر المولى سبحانه عن عجيبة أخرى من بديع

---

[١] – التفسير الوسيط للقرآن الكريم لفضيلة الدكتور/ محمد سيد طنطاوي ١٤/٢٧ دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، الفجالة – القاهرة الطبعة الأولى

[٢] – التفسير الوسيط للقرآن الكريم لفضيلة الدكتور/ محمد سيد طنطاوي ١٤/٢٧ دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، الفجالة – القاهرة الطبعة الأولى

صنعته فقال : (وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ). أي :والأرض مهدناها لكم ، وجعلناها صالحة لحياة الإنسان والحيوان ، وأودعنا فيها الأرزاق والأقوات ، للإنسان والحيوان والطيور وغيرها من سائر المخلوقات التي سخرناها للإنسان ، كذا جعلنا في الأرض كثيرا من المعادن التي فيها منافع كثيرة لكم ، فتبنون مساكنكم من حجارتها، كما أنكم تتخذون الحلي من ذهبها ، وفضتها ، وأحجارها ، وأيضا يمكنكم صناعة الكثير من آلات الحرب والسفن والطائرات من حديدها ومعادنها الأخرى. ثم إن الله تعالى قد مدح نفسه بعد ذلك على ما صنع فقال سبحانه: (فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ) أي فنعم ما فعلنا، وما أجمل ما خلقنا، مما فيه عظة لمن يتذكر ويتدبر. (وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ) . أي : وإنا قد خلقنا من كل شيء ثانيا له ، فخلقنا السعادة والشقاوة، والهدى والضلال ، والليل والنهار، والسماء والأرض، والسواد والبياض- وما خلقنا ذلك إلا لتتذكروا وتعتبروا ولتعلموا أن الله ربكم الذي يجب عليكم أن تعبدوه وحده لا شريك له- هو الذي يقدر على التنويع في الخلق ، فيخلق الشيء وخلافه، ويقدر على ابتداع زوجين من كل شيء ، أما ما لا ما لا يستطيع ذلك ، فلا يصلح لأن يكون معبودا بحال. (فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ) ، الفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها. قال العلامة أبو السعود رحمه الله : إما لترتيب الأمر على ما حكي من أثار غضبه الموجبة للفرار منها ومن أحكام رحمته المستدعية للفرار إليها ، كأنه قيل : قل لهم : إذا كان الأمر كذلك فاهربوا إلى الله الذي هذه شؤنه بالإيمان والطاعة كي تنجوا من عقابه وتفوزوا

بثوابه ، وإما للعطف على جملة مقدرة مترتبة على قوله تعالى لعلكم تذكرون كأنه قيل قل لهم فتذكروا ففروا إلى الله[١] ،

قلت : والمعنى : إذا كان الأمر كما ذكر لكم من إهلاك المكذبين لرسلنا فأسرعوا أيها الناس باللجوء إلى الله سبحانه، وعليه اعتمدوا في كل أموركم ، كذلك بادروا إلى اتباع أوامره سبحانه ، واحرصوا على اجتناب نواهيه، كيلا يحل بكم مثل ما قد حل بهم من العذاب الأليم ، وحتى تكونوا من الناجين من غضبه وعقابه، وتفوزوا بعفوه وثوابه، أو: ففروا من الكفر إلى الإيمان، ومن المعصية إلى الطاعة، أو: من طاعة الشيطان إلى طاعة الرحمن ، ثم يأتي قوله تعالى : (إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ) ، على سبيل التعليل للأمر بالفرار إلى الله سبحانه ، أي إني لكم نذير من الله أنذركم من عقابه، وأخوفكم عذابه الذي أنزله الله بالأمم السابقة التي قصصنا عليكم خبرهم في الآيات السابقة قصصها، وإني مبين لكم ما يجب عليكم أن تحذروه. يقول العلامة أبو السعود رحمه الله : وفي أمره تعالى للرسول – صلى الله عليه وسلم – بأن يأمرهم بالهرب إليه تعالى من عقابه وتعليله بأنه – عليه الصلاة والسلام – ينذرهم من جهته تعالى لا من تلقاء نفسه وعد كريم بنجاتهم من المهروب وفوزهم بالمطلوب[٢]. وفى الدعوة بالفرار إلى الله، إشارة إلى أن هناك خطرا يتهدد

---

[١] – إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم لأبي السعود ٨ / ١٤٣ دار إحياء التراث العربي – بيروت

[٢] . إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم لأبي السعود ٨ / ١٤٣ دار إحياء التراث العربي – بيروت

الإنسان، إذا هو خرج عن أمر ربه، وحاد عن الصراط المستقيم ، إنه حينئذ يقع تحت يد الشيطان، الذي يفترسه، كما يفترس الذئب ضالة الغنم

ثم ذكر أعظم ما يجب أن يفر المرء منه، وهو الشرك فقال:

(وَلا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلهاً آخَرَ). أي ، ولا تجعلوا مع معبودكم الذي خلقكم معبودا آخر سواه ، فإن العبادة لا تصلح لغيره. ثم علل هذا النهي بقوله: (إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ) أي ، إني لكم نذير ومخوف من عقابه على عبادتكم غيره. * وفي هذا تأكيد لما تضمنه الأمر بالإيمان بالله الذي هو حبل النجاة، فإذا أمسك به الإنسان كان في الناجين، على أي وجه كان عمله بعد ذلك ، وفى إعادة فاصلة الآية: «إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ» – إعجاز من إعجاز القرآن، حيث يجعل من الآيتين– الآمرة والناهية آية واحدة، الأمر الذي يدعو إلى الجمع بينهما، والأخذ بهما جميعا، وأن الأخذ بواحدة منهما لا يغني عن الأخذ بالأخرى.. وكأن نظم الآيتين هكذا..

«فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ ، وَلا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلهاً آخَرَ.. إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ»

قال العلامة الآلوسي رحمه الله:

الأول : مرتب على ترك الإيمان والطاعة.

الثاني على الإشراك فهما متغايران لتغاير ما ترتب كل منهما عليه ووقع تعليلا له ولا يخلو عن كدر[1]

[1] – : روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني للآلوسي ١٤/ ١٩ دار الكتب العلمية – بيروت الطبعة الأولى، ١٤١٥ هـ

ثم تأتي الآتية التالية على سبيل التسلية لسيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول سبحانه :(كَذٰلِكَ) أي: إن أمر قومك يا رسول الله معك ، ووصفهم إياك بساحر أو مجنون، هو نفس ما قاله السابقون لرسل الله إليهم، فلست بدعا من الرسل فلا تبتئس بما يقولون أنت ومن اتبعك فهذه عادة هؤلاء مع رسل الله صلوات الله وتسليماته عليهم أجمعين ، ومما لا يخفى أن تصرف المكذبين مع الرسل نابع من جهلهم بحق الرسل ،مع عظيم الحقد وشديد الحسد والضمير في قوله: (أَتَواصَوْا بِهِ) للقول أي: أتواصى هؤلاء من الأولين والآخرين بهذا القول، حتى إنهم قالوه جميعا كأنهم متفقين على ذلك ،والاستفهام في الآية تعجبي عما إذا كان السابقون واللاحقون قد تواصوا ليقولوا قولا واحدا. (بَلْ هُمْ قَوْمٌ طاغُونَ) أي أن القوم لم يتواصوا بهذا القول لأنهم لم يلتقوا في زمن واحد، بل إن الذي جمعهم على ذلك علة واحدة ، هي الطغيان مع الحقد والحسد ، وإذا كان الأمر كذلك (فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَا أَنْتَ بِمَلُومٍ) ، وفي هذه الآية أمر لسيدنا النبي – صلى الله عليه وسلم – بأن يعرض عن هؤلاء المكذبين ، وألا يجد ضيقا من تصرف قومه ، وألا يحمل نفسه هما بسب إصرارهم على الكفر أو التكذيب فإنه لا لوم عليك يا رسول الله من موقفهم السيء ، إذ لا يجب عليك إلا البلاغ ، وعليك أن تستمر في التذكير الذي هو واجبك ، واعلم يا رسول الله أن هذا التذكير نافع فقط للمؤمنين الذين يرغبون في الحق والهداية ، ويبحثون عن الإيمان حبا وقناعة.

وعلى كل ، فالآيات تتضمن تطمينا وتثبيتا لسيدنا النبي – صلى الله عليه وسلم – كما تتضمن توبيخا شديدا للكفار وتهديدا لهم ، كما أن الآية الأخيرة احتوت تنويها بشأن المؤمنين الصادقين واصفة إياهم بأنهم الذين

ينتفعون بالتذكير والوعظ والإرشاد ، وفي هذا ما فيه من المدح لهم والثناء عليهم ، كما أن في الآيات تطييبا لخاطر أولئك الدعاة الذين يقومون بواجب النصح والإرشاد، وأن عليهم أن يستمروا في الدعوة إلى الله تعالى ، وألا ييأسوا من بطء استجابة الناس لدعوتهم، لأن عدم استجابة الناس لهم ليس دليلا على فشلهم ، أو عدم صدقهم ، فما داموا صالحين فإن دعوتهم مؤثرة نافعة حتما في ذوي النفوس الطيبة ، والقلوب الصافية ، والنوايا السليمة.

الموضوع السادس

الحكمة من خلق الإنس والجن

قال تعالى : (وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ، مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ ، إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ، فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذَنُوبًا مِثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَابِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ ، فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَ) الآيات من ٥٦ : ٦٠

مناسبة الآيات لما قبلها.

بعد أن تحدثت الآيات السابقة عن إهلاك المكذبين بالبعث ، ثم أتبعت ذلك بالحديث عن أدلة قدرة الله سبحانه عن البعث جاءت هذه الآيات ببيان الغاية من خلق الإنس والجن ، وأن المشركين قد انحرفوا عن ذلك . يقول الشيخ الطاهر بن عاشور رحمه الله : فبعد أن نظر حالهم بحال الأمم التي صممت على التكذيب من قبلهم أعقبه بذكر شنيع حالهم من الانحراف عما خلقوا لأجله وغرز فيهم. فقوله: (وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ

إِلَّا لِيَعْبُدُونِ) خبر مستعمل في التعريض بالمشركين الذين انحرفوا عن الفطرة التي خلقوا عليها فخالفوا سنتها اتباعا لتضليل المضلين.[١]

معاني الكلمات

١ – (الْجِنَّ) : من : جن الشيء يجنه جنا: ستره. وكل شيء ستر عنك فقد جن عنك. وجنه الليل يجنه جنا وجنونا وجن عليه يجن، بالضم، جنونا وأجنه: ستره؛ وجن عليه الليل ، أي : ستره، وبه سمي الجن لاستتارهم واختفائهم عن الأبصار، ومنه سمي الجنين لاستتاره في بطن أمه[٢]. والجن خلاف الإنس، والواحد جني، سميت بذلك لأنها لا ترى. والجن: جنس من المخلوقات مستتر عن أعين الناس وهو جنس شامل للشياطين.

٢ – (وَالْإِنْسَ) : اسم جمع واحده :إنسي بياء النسبة إلى اسم جمعه.: وهو اسم لجماعة الإنس. وهو من أسماء الجموع، قال ابن منظور : وتصغيره نويس، فالناس من النوس وهو الحركة، يقال: ناس الشيء ، ينوس أي: تحرك ، وقيل: أصله نسي ، فأصل ناس نسي، قلب فصار نيس، تحركت الياء وانفتح ما قبلها فانقلبت ألفا، ثم دخلت الألف واللام فقيل: الناس[٣].

---

[١] – التحرير والتنوير لابن عاشور ٢٧ /٢٥

[٢] – لسان العرب لابن منظور حرف النون ، فصل الجيم مادة جنن ١٣/ ٩٢

[٣] – لسان العرب لابن منظور ، حرف السين فصل النون مادة : نوس ٦ / ٢٤٥، وما بعدها بتصرف.

وتقديم الجن في الذكر لتقدم خلقهم على خلق الإنس في الوجود. ويضيف الشيخ الطاهر بن عاشور رحمه الله وجها آخر فيقول : وتقديم الجن في الذكر في قوله: وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون للاهتمام بهذا الخبر الغريب عند المشركين الذين كانوا يعبدون الجن، ليعلموا أن الجن عباد الله تعالى[1]

قلت : والمقصود من هذا الإخبار هو الإنس ، وإنما ذكر الجن لمناسبة ذكر الإنس.

٣ – (إِلَّا لِيَعْبُدُونِ): أي إلا لآمرهم بعبادتي لا لاحتياجي إليهم، المتين: أي الشديد القوة.

قلت : الحصر في قوله : (إِلَّا لِيَعْبُدُونِ) ، قصر موصوف على صفة من قبيل القصر الإضافي .

قال الشيخ الطاهر بن عاشور :

والظاهر أنه قصر إضافي وأنه من قبيل قصر الموصوف على الصفة، وأنه قصر قلب باعتبار مفعول ليعبدون، أي إلا ليعبدوني وحدي، أي لا ليشركوا غيري في العبادة، فهو رد للإشراك، وليس هو قصرا حقيقيا فإنا وإن لم نطلع على مقادير حكم الله تعالى من خلق الخلائق، لكنا نعلم أن الحكمة من خلقهم ليست مجرد أن يعبدوه، لأن حكم الله تعالى من أفعاله

[1] – التحرير والتنوير لابن عاشور ٢٧ /٢٨

كثيرة لا نحيط بها، وذكر بعضها كما هنا لما يقتضي عدم وجواد حكمة أخرى[١].

٤ – (ذَنُوباً).الذّنوب في الأصل: الدلو العظيمة المملوءة ماء، ولا يقال لها ذنوب إذا كانت فارغة. وجمعها ذنائب، كقلوص وقلائص، وكانوا يستسقون الماء فيقسمونه بينهم على الأنصباء.

فيكون لهذا ذنوب، ولهذا ذنوب. قال الأزهري: الذَّنوب من كلام العرب الدلو العظيمة، ولكن العرب تذهب به إلى النصيب والحظ[٢]. فالمراد بالذنوب هنا: النصيب، والمعنى: فإن للذين ظلموا أنفسهم بعبادتهم لغير الله، وبظلمهم لغيرهم، نصيبا من العذاب، مثل نصيب نظرائهم في الظلم والكفر، فلا يستعجلون عذابي، فإنه نازل بهم في الوقت الذي أريد.

٥ – (أَصْحَابِهِمْ): الصحب: جمع الصاحب مثل راكب وركب. والأصحاب: جماعة الصحب مثل فرخ وأفراخ. والصاحب: المعاشر؛ وصاحبه: عاشره.[٣] . والمراد: نظراؤهم في الكفر.

٦ – (فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا): أي هلاك لهم.

---

[١] – التحرير والتنوير لابن عاشور ٢٧ / ٢٦. وما بعدها

[٢] – تهذيب اللغة للأزهري ١٤ / ٣١٦

[٣] – لسان العرب لابن منظور ، حرف الباء – فصل الصاد المهملة مادة صحب ١ / ٥١٩. بتصرف

المعنى العام

وبعد أن أمر الله سبحانه رسوله – صلى الله عليه وسلم – بالتذكير به – عز شأنه – جاءت هذه الآية على سبيل الدعوة للإنس والجن إلى أن يستجيبوا لما يدعوهم إليه الرسول الكريم – صلى الله عليه وسلم ، وأن يستقيموا على المنهج الذي خلقهم الله تعالى من أجله، ألا وهو إفراده سبحانه بالعبادة . ذلك أن الله لم يخلق الخلق ليرزقوه ، وإنما خلقهم ليعبدوه وحده ، وتقديم خلق الجن في الذكر لتقدمه على خلق الإنس في الوجود ، ومن المعلوم أن العبادة المكلف بها الإنس والجن هي عبادة التكليف التي تقتضي الالتزام بالأمر والنهي ، أما العبادة التي مطلق عبادة بمعنى الطاعة بالفطرة فهي من شأن الموجودات الأخرى ، ذلك أن الله ما خلق الخلق إلا من أجل هذه الغاية، يقول سبحانه : «إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمنِ عَبْداً»[1] ويقول جل شأنه: «وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمواتِ وَالْأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً وَظِلالُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآصالِ»[2]. ويقول عز وجل : (أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ ، وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ، يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ

---

[1] – سورة مريم ، آية : ٩٣

[2] – سورة الرعد ، آية : ١٥

فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ)[١] ويقول سبحانه: «وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلكِنْ لا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ»[٢]

يقول الأستاذ /عبد الكريم الخطيب : فالكافر الذي لا يؤمن بالله، ولا يسبح بحمده، هو مؤمن بالله كرها ومسبح بحمده قسرا.. فكل ذرة فيه، وكل جارحة من جوارحه، تسبح بحمد الله، وتؤدى وظيفتها على الوجه الذي أقامها الله سبحانه وتعالى فيه.. فالخلايا التي يبنى منها الكيان الجسدي للإنسان تسبح بحمد ربها في عملها الذي تؤديه بناء أو هدما في الكيان الإنساني، والقلب بخفقاته، والدم بجريانه في العروق، والعروق بحملها للدم، وتغذيتها الجسم به، والعين في نقلها المرئيات، والأذن بتلقيها للمسموعات.. وهكذا كل ما في الإنسان- ظاهرا أو باطنا- يسبح بحمد الله.. وكذلك الشأن في كل موجودات[٣]

يقول ابن الجوزي : وقد اختلف العلماء في المقصود بالعبادة في هذه الآية على أربعة أقوال:

أحدها: إلا لآمرهم أن يعبدوني، قاله علي بن أبي طالب، واختاره الزجاج. الثاني: إلا ليقروا بالعبودية طوعا وكرها، قاله ابن عباس وبيان هذا قوله: (وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ)[٤].

---

[١] – سورة النحل الآيات من ٤٨ : ٥٠

[٢] – سورة الإسراء ، آية : ٤٤

[٣] – التفسير القرآني للقرآن للأستاذ /عبد الكريم الخطيب ١٤/ ٥٣٧. دار الفكر العربي – القاهرة

[٤] – سورة الزخرف ، آية : ٨٧

الثالث: أنه خاص في حق المؤمنين. قال سعيد بن المسيب: ما خلقت من يعبدني إلا ليعبدني. وقال الضحاك والفراء وابن قتيبة: هذا خاص لأهل طاعته، وهذا اختيار القاضي أبي يعلى فإنه قال: معنى هذا الخصوص لا العموم، لأن البله والأطفال والمجانين لا يدخلون تحت الخطاب وإن كانوا من الإنس فكذلك الكفار يخرجون من هذا بدليل قوله: (وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ)[1] ، فمن خلق للشقاء ولجهنم لم يخلق للعبادة.

الرابع: إلا ليخضعوا إلي ويتذللوا، ومعنى العبادة في اللغة: الذل والانقياد. وكل الخلق خاضع ذليل لقضاء الله عز وجل، لا يملك خروجا عما قضاه الله عز وجل، هذا مذهب جماعة من أهل المعاني[2]. وفي قوله تعالى :«ما أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَما أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ» بيان أن الله سبحانه ليس في حاجة إلى عبادة أحد ، ولا إلى إيمانه ، فهو الغني الحميد ، والخلق جميعا فقراء إليه في كل ما يتعلق بهم ،يقول سبحانه :«إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَلا يَرْضى لِعِبادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ»[3]. وما كلفهم به سبحانه من التكاليف منفعته راجعة إليهم لا إليه سبحانه، فعبادة الله سبحانه تجلب لصاحبها مزيدا من العزة والطمأنينة في الدنيا والأجر العظيم في الآخرة .

---

[1] – سورة الأعراف ، آية : ١٧٩

[2] – زاد المسير في علم التفسير لابن الجوزي ٤/ ١٧٣ دار الكتاب العربي – بيروت الطبعة الأولى – ١٤٢٢ هـ

[3] – سورة الزمر آية : ٧.

قوله تعالى: ما أريد منهم من رزق أي: ما أريد أن يرزقوا أنفسهم ، وما أريد أن يطعموا أحدا من خلقي، لأني أنا الرزاق. وإنما أسند الإطعام إلى نفسه، لأن الخلق عيال الله، ومن أطعم عيال أحد فقد أطعمه.

قلت : فخلاصة الأمر أنه سبحانه غني عن خلقه جميعا ، فلا يفعل معهم كما يفعل موالي الناس في الاستعانة بعبيدهم في جلب المنافع ، ودفع المضار، وتحصيل الأرزاق ، وغير ذلك من وجوه النفع. وقوله تعالى :«فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذَنُوباً مِثْلَ ذَنُوبِ أَصْحابِهِمْ فَلا يَسْتَعْجِلُونِ»

جاءت هاتان الآيتان خاتمة لآيات السورة الكريمة لتؤكد على ما بدأت به من تهديد الذين كفروا أولئك الذين لم يؤمنوا بالله ، ولم يستجيبوا للرسول صلى الله عليه وسلم فكانوا من الظالمين لأنفسهم ظلما عظيما بسلوكهم طريق الكفر فكان جزاؤهم العذاب العظيم ، وقد جاء التعبير عن عذابهم هنا بأسلوب مغاير لما جاء في غيرها من سور القرآن الكريم «فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذَنُوباً مِثْلَ ذَنُوبِ أَصْحابِهِمْ» وإذا كان المقصود بالذّنوب : الدلو الممتلئ ، فإن المراد به هنا نصيب عظيم من العذاب لهؤلاء الظالمين، مثل ما لأصحابهم الذين سبقوهم من أهل الضلال الذين أهلكوا، كقوم نوح وعاد وثمود ، وذلك جريا على عادة العرب في الاستقاء من الآبار، حيث يتساجلون، فيملأ هذا دلوا، والآخر دلوا. وقوله سبحانه: «فَلا يَسْتَعْجِلُونِ» تهديد جديد ووعيد لهم، بأن هذا الذي يستعجلونه من العذاب، استخفافا به وتكذيبا له، هو واقع بهم حتما فلا محل لاستعجال الله فيه ولسوف يكون يومهم الذي يوعدون به رهيبا شديدا. ويومئذ لا يجدون وليا ولا نصيرا

والله أعلم

النتائج والمقترحات

وبعد هذه الجولة السريعة مع تفسير سورة الذاريات تبين ما يأتي

١- أن سورة الذاريات سورة مكية بالإجماع، وعدد آياتها ستون آية .

٢- أن الموضوع الأبرز لسورتنا هو قضية البعث ، وما يتعلق به.

٣ - أن الإنسانية منقسمة على نفسها في شأن ما جاء به أنبياء الله ورسله صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

٤- أنه لا حق للمكذبين بالبعث بعد وضوح الأدلة وظهور البراهين.

٥ – أن القرآن قد سلك مع المخالفين مسلك الحجة والبرهان توصلا لإقناع المنصفين .

٦- تعتبر الأدلة الحسية أحدى الأساليب القرآنية في عرض موضوعاته.

٧-لا دليل يعتمد عليه للمنكرين للبعث ، وإنما هي مجرد محاولات يائسة أشد شبها بمن ينكر ضوء الشمس من رمد.

٨ – من خلال البحث تبين ما لعلم التفسير من شرف ، وأهمية ، ومكانة.

٩ – كذلك يظهر فضل الدارسين لعلم التفسير ومنزلتهم .

١٠ – أن دارس علم التفسير يكتسب ثروة هائلة من العلوم العربية ، والشرعية ، والعقلية ، وكذلك مكتشفات العلم الحديث.

١١ – كذلك يتجلى بوضوح مدى التوافق العظيم بين ما جاء في القرآن وبين ما قد أثبته العلم الحديث.

١٢ – ضرورة العناية بالدراسات القرآنية المواكبة لظروف العصر الحديث.

١٣ – العمل على الاستغلال الأمثل لما توصلت إليه الإنسانية من وسائل الاتصال الحديثة لتوضيح صورة الإسلام الرائعة التي يحاول المجرمون طمسها.

١٤ – ضرورة الوصول إلى الأقليات المسلمة في شتى أنحاء العالم وكذلك المنصفين من غير المسلمين وذلك لإظهار حقيقة الإسلام الرائعة التي أخفتها وتخفيها خفافيش الظلام.

١٥ – العمل على توفير ما يلزم من المال ، والجهد ، ووسائل الاتصال للوصول إلى كل من يمكن الوصول إليه من البشر ودعوتهم إلى هذا الدين الحق بعيدا عما يبثه الأعداء والجاهلون من سموم حول هذا الدين العظيم.

١٦ – ضرورة الحرص على استغلال الطاقات التي وهبها الله لهذه الأمة من البترول وخلافه في ضرورة أن يسمع الآخر عن الإسلام الحق ، وألا يضيقوا عليه الخناق هنا وهناك.

١٧ – الحرص على استغلال وسائل الإعلام داخل دول العالم العربي والإسلامي للحديث المركز والمكثف من المتخصصين الصادقين عن محاسن الإسلام وواقعيته ، وعقلانيته ، وتوافقه مع حقائق مكتشفات العلم الحديث.

١٨ – من السلبيات المنتشرة داخل بلدان المسلمين فشل وسائل الاتصال في التعبير الصادق عن الإسلام.

١٩ – ترتب على ما سبق وجود فئات كثيرة داخل المجتمع المسلم تجهل حقائق هذا الدين مما أدى إلى عدم مبالاة بعضهم بشعائر هذا الدين ، وببعض آخر إلى معاداة وكراهية كل ما يدعو إلى الإسلام.

٢٠ – لا صلاح للأفراد ولا للمجتمعات بدون الإيمان بالله واليوم الآخر كما تحدث عنه القرآن العظيم .

والله الموفق

أهم المراجع

القرآن الكريم.

- الإتقان في علوم القرآن، لجلال الدين السيوطي، نشر: دار إحياء العلوم، بيروت ١٩٨٧ م.

- أحكام القرآن، عماد الدين ابن الطبري المعروف بالكياالهراسي، تحقيق: موسى محمد علي، ود. عزت عطية، نشر: دار الكتب الحديثة، مصر ١٩٧٤ م.

- أحكام القرآن، لأبي بكر أحمد بن علي الرازي الجصاص، دار الكتاب العربي، بيروت.

- أحكام القرآن، لأبي بكر بن العربي، تحقيق: محمد علي البجاوي ،دار المعرفة، بيروت.

- أحكام القرآن، لأبي عبد الله الشافعي، جمع: أبي بكر البيهقي، تحقيق: عبد الغني عبد الخالق، دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٧٥ م.

- الأدب المفرد، لأبي عبد الله البخاري المطبعة السلفية ومكتبتها، القاهرة ١٣٨٨ هـ.

- أسباب نزول القرآن، لأبي الحسن الواحدي، تحقيق: السيد أحمد صقر، نشر: دار القبلة، جدة- الرياض ١٩٨٤ م.

- إعراب القرآن، لأبي جعفر النحاس، تحقيق: د. زهير غازي زاهد، مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة ١٩٨٥ م.

- إملاء ما من به الرحمن، لأبي البقاء العكبري، مصورة: دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٧٩ م.

- الأنساب، لأبي سعد السمعاني، نشر: دائرة المعارف العثمانية، حيدرآباد الدكن، الهند ١٩٦٢ - ١٩٨٢ م.

- البرهان في علوم القرآن، لبدر الدين الزركشي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، نشر: دار المعرفة، بيروت.

- تأويل مختلف الحديث، لابن قتيبة، تحقيق: محمد محيي الدين الأصفر، نشر: المكتب الإسلامي، دار الإشراق، بيروت ١٩٨٩ م.

- تأويل مشكل القرآن، لابن قتيبة الدينوري، تحقيق: السيد أحمد صقر، المكتبة العلمية، المدينة المنورة ١٩٨١ م.

- تاج العروس من جواهر القاموس، لمحمد مرتضى الزبيدي، تحقيق: عبد الستار أحمد فراج وآخرين، نشر: وزارة الإرشاد الإعلام، الكويت ١٩٦٥ - ١٩٨٤ م.

- التبيان في أقسام القرآن، لابن قيم الجوزية، دار الطباعة المحمدية، مصر ١٩٦٨ م.

- التعريفات، لعلي بن محمد الجرجاني، تحقيق: إبراهيم الأبياري، دار الكتاب العربي، بيروت ١٩٨٥ م.

- تفسير التحرير والتنوير، لمحمد الطاهر بن عاشور، الدار التونسية، تونس ١٩٨٤ م. م.

- تفسير غريب القرآن، لابن قتيبة الدينوري، تحقيق: السيد أحمد صقر، مصورة: دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٧٨ م.

- تفسير القرآن العظيم، لأبي الفداء ابن كثير، دار الفكر، بيروت ١٩٧٠ م.

- تفسير الماوردي النكت والعيون. تحقيق السيد ابن عبد المقصود بن عبد الرحيم دار الكتب العلمية – بيروت / لبنان بدون تاريخ.

- تفسير النسائي، (جزء من السنن الكبرى)، تحقيق: سيد الجليمي، وصبري الشافعي، مكتبة السنة، القاهرة ١٩٩٠ م.

- تقريب التهذيب، لابن حجر العسقلاني، تحقيق: محمد عوامة، نشر: دار الرشيد، حلب ١٩٨٨

- التيسير في القراءات السبع، لأبي عمرو الداني، تحقيق: أوتو برتزل، جمعية المستشرقين الألمانية، استانبول ١٩٣٠ م مكتبة المثنى، بغداد.

- جامع البيان عن تأويل آي القرآن، لأبي جعفر الطبري، نشر: شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي، مصر ١٩٦٨ م.

- الجامع لأحكام القرآن، لأبي عبد الله القرطبي، مصورة: دار إحياء التراث العربي، بيروت ١٩٨٥ م.

- الجامع، لأبي عيسى الترمذي، تحقيق: د. بشار عواد معروف، نشر: دار الغرب الإسلامي، بيروت ١٩٩٨ م.

- الدر المنثور في التفسير بالمأثور، لجلال الدين السيوطي، دار الفكر، بيروت ١٩٨٣ م.

- دلائل النبوة، لأبي بكر البيهقي، تحقيق: د. عبد المعطي قلعجي، نشر: دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٨٥ م.

- زاد المسير في علم التفسير، لأبي الفرج بن الجوزي، المكتب الإسلامي، دمشق- بيروت ١٩٦٤ م.

- السبعة في القراءات، لأبي بكر بن مجاهد، تحقيق: د. شوقي ضيف، دار المعارف بمصر ١٩٧٢ م.

- السنة، لأبي بكر بن أبي عاصم، تحقيق: محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، بيروت- دمشق ١٩٨٠ م.

- السنة، لمحمد بن نصر المروزي، تحقيق: سالم بن أحمد، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت ١٩٨٨ م.

- السنن الكبرى، لأبي بكر البيهقي، دار المعرفة ببيروت عن طبعة دائرة المعارف العثمانية، حيدرآباد ١٣٥٥ هـ.

- السنن الكبرى، لأبي عبد الرحمن النسائي، تحقيق: د. عبد الغفار البنداري، وسيد كسروي حسن، دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٩١ م.

- السنن، لأبي الحسن الدارقطني، تحقيق: عبد الله هاشم يماني، دار المحاسن، القاهرة ١٩٦٦ م

- السنن، لأبي داود السجستاني، تحقيق: عزت الدعاس وعادل السيد، دار الحديث، حمص ١٩٧٤ م.

- السنن، لأبي عبد الرحمن النسائي، اعتناء: عبد الفتاح أبو غدة، مكتب المطبوعات الإسلامية، حلب ١٩٨٦ م.

- السنن، لأبي عبد الله بن ماجة، تحقيق: د. بشار عواد معروف، دار الجيل، بيروت ١٩٩٨

- شرح مشكل الآثار، لأبي جعفر الطحاوي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت ١٩٩٤ م.

- شعب الإيمان، لأبي بكر البيهقي، تحقيق: محمد السعيد بن بسيوني زغلول، دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٩٠ م.

- الصحيح، لأبي بكر بن خزيمة، تحقيق: د. محمد مصطفى الأعظمي، المكتب الإسلامي، بيروت ١٩٧٩ م.

- الصحيح، لأبي عبد الله البخاري، تحقيق: د. مصطفى ديب البغا، دار القلم، دمشق- بيروت ١٩٨١ م.

- الصحيح، لمسلم بن الحجاج، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، المكتبة الإسلامية، استانبول.

- فتح الباري لابن حجر العسقلاني، دار المعرفة، بيروت عن طبعة محب الدين الخطيب.

- فتح القدير لمحمد بن علي الشوكاني، تحقيق: د. عبد الرحمن عميرة، دار الوفاء، المنصورة ١٩٩٧ م.

- الكشاف عن حقائق التنزيل، لجار الله الزمخشري، دار المعرفة، بيروت

- لباب النقول في أسباب النزول، لجلال الدين السيوطي، دار إحياء العلوم، بيروت ١٩٧٩ م.

- لسان العرب، لجمال الدين ابن منظور، دار صادر، بيروت.

- مباحث في علوم القرآن، لمناع القطان، مؤسسة الرسالة، بيروت ١٩٨١ م.

- مجاز القرآن لأبي عبيدة معمر بن المثنى، تحقيق: محمد فؤاد سزكين، مؤسسة الرسالة، بيروت ١٩٨١ م.

- المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، لأبي محمد عبد الحق بن عطية الغرناطي، تحقيق: الرحالي الفاروقي وآخرين، دولة قطر ١٩٧٧ م.

- مختصر تفسير المنار، لمحمد رشيد رضا، تتمة وتعليق: محمد أحمد كنعان، المكتب الإسلامي، دمشق- بيروت ١٩٨٤ م.

- المراسيل لأبي داود السجستاني، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، نشر: مؤسسة الرسالة، بيروت ١٩٨٨ م.

- المرشد الوجيز إلى علوم تتعلق بالكتاب العزيز، لأبي شامة المقدسي، دار المعرفة، بيروت.

- المستدرك على الصحيحين، لأبي عبد الله الحاكم، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، نشر: دار الكتب العلمية، بيروت (١٩٩٠ م).

- مسند الشاميين لأبي القاسم الطبراني، تحقيق: حمدي عبد المجيد السلفي، مؤسسة الرسالة، بيروت ١٩٨٩ - ١٩٩٦ م.

- المسند لأبي داود الطيالسي، دار الكتاب اللبناني- دار التوفيق، بيروت، دائرة المعارف العثمانية بحيدرآباد، الهند.

- المسند لأبي عبد الله أحمد بن حنبل، مصورة المكتب الإسلامي، بيروت ١٩٧٨ م، ونشرة الشيخ أحمد محمد شاكر (أنبه عليها في مواضعها)،

ونشرة مؤسسة الرسالة بتحقيق: شعيب الأرنؤوط ومجموعته، (والعزو إليها يتميز بأرقام الأحاديث).

- المسند، لأبي يعلى الموصلي، تحقيق: حسين سليم أسد، دار المأمون للتراث، دمشق ١٩٨٤ - ١٩٨٨ م.

- المصاحف لأبي بكر بن أبي داود السجستاني، تحقيق: د. آثر جفري، المطبعة الرحمانية سنة ١٩٣٦ م.

- المصنف لأبي بكر بن أبي شيبة، تحقيق: عبد الخالق الأفغاني وغيره، الدار السلفية، بومباي، الهند ١٩٨٣ م، دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٩٥ م

- المصنف لعبد الرزاق الصنعاني، تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي، المجلس العلمي، باكستان- الهند ١٩٧٠ - ١٩٧٢ م.

- معالم التنزيل، للحسين بن مسعود البغوي، تحقيق: محمد النمر وعثمان ضميرية وسليمان الحرش، دار طيبة، الرياض ١٩٩٧ م.

- المعجم الأوسط لأبي القاسم الطبراني، تحقيق: د. محمود الطحان، مكتبة المعارف، الرياض ١٩٨٥ - ١٩٩٥ م.

- المعجم الصغير لأبي القاسم الطبراني، تحقيق: كمال يوسف الحوت، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت ١٩٨٦ م.

- المعجم الكبير للطبراني، تحقيق: حمدي عبد المجيد السلفي، نشر: وزارة الأوقاف، بغداد ١٩٧٨ - ١٩٨٣ م.

- معجم مقاييس اللغة لأبي الحسين بن فارس، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، نشر: مكتبة الخانجي، القاهرة ١٩٨١ م.

- المغني، لأبي محمد بن قدامة المقدسي، نشر: مكتبة الرياض

- الملل والنحل، للشهرستاني، تحقيق: محمد عبد القادر الفاضلي، المكتبة العصرية، بيروت ٢٠٠٠ م.

- الموافقات في أصول الشريعة، لأبي إسحاق الشاطبي، تحقيق: محمد عبد الله دراز، دار الباز، عن طبعة المكتبة التجارية الكبرى، مصر.

- الموطأ، للإمام مالك بن أنس، رواية: يحيى الليثي، تحقيق: بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي، بيروت ١٩٩٦ م.

- الناسخ والمنسوخ، لأبي جعفر النحاس، تحقيق: د. محمد عبد السلام محمد، مكتبة الفلاح، الكويت ١٩٨٨ م.

- الناسخ والمنسوخ، لأبي عبيد القاسم بن سلام الهروي، تحقيق: محمد بن صالح المديفر، نشر: مكتبة الرشد، الرياض ١٩٩٠ م.

- النشر في القراءات العشر، لأبي الخير ابن الجزري، تحقيق: علي محمد الضباع، دار الفكر، بيروت.

- نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، لبرهان الدين البقاعي، دائرة المعارف العثمانية، الهند ١٩٦٩ م.

- نكت الانتصار لنقل القرآن، لأبي بكر الباقلاني، تحقيق: محمد زغلول سلام، منشأة المعارف، الإسكندرية ١٩٧١ م.

- نواسخ القرآن، لأبي الفرج ابن الجوزي، تحقيق: محمد أشرف الملباري، الجامعة الإسلامية، المدينة المنورة ١٩٨٤ م.

- الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، لأبي الحسن الواحدي، تحقيق: صفوت عدنان داودي، دار القلم، دمشق- الدار الشامية، بيروت ١٩٩٥م.

- الوسيط في تفسير القرآن المجيد، لأبي الحسن الواحدي، تحقيق: عادل عبد الموجود وآخرين، نشر: دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٩٤ م.

وهناك مراجع أخرى تعلم من خلال مطالعة البحث.

فهرس الموضوعات

- المقدمة
- المطلب الأول : التعريف بالسورة الكريمة
- اسم السورة الكريمة
- المطلب الثاني : تفسير آيات السورة الكريمة
- الموضوع الأول : البعث حق

الموضوع الثاني : المتقون وصفاتهم

الموضوع الثالث قصة ضيف إبراهيم عليه السلام

الموضوع الرابع ومن قصص الأنبياء

الموضوع الخامس من دلائل القدرة

الموضوع السادس الحكمة من خلق الإنس والجن

النتائج والمقترحات

أهم المراجع

فهرس الموضوعات